

طباعة. نشر. توزيع

حماة الإسلام

الجزء الثاني

تأليف
مصطفى نجيب

لا إله إلا الله محمد رسول الله



حُماة الإسلام

الناشـــــــر : مكتبة ومطبعة الغد

العـــنـــوان : ٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - امبابة - جيزة

تليـــفـــون : ٣٢٥٠٢٠٢

رقم الإيـــداع : ٩٧/٨٧٨٣

الترقيم الدولى : 977 - 5819 - 18 - 0

الغـــــلاف : مجدى بكر

طبعة جديدة

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

حُماة الإسلام

تأليف

المرحوم مصطفى بك نجيب

الجزء الثانى

تقديم وتعليق

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

الناشر

مكتبة ومطبعة الغد



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(نبذة تاريخية)

قد أتينا فى الجزء الأول من « حماة الإسلام » على ذكر شىء يسير من سيرة بعض ساداتنا خلفاء بنى أمية وبنى مروان وخبر بعض قوادها ، ورأينا الآن أن ننتقل لسيرة بعض ساداتنا خلفاء بنى العباس وقوادهم أيضاً ، وما ذلك عن قلة ولا سآمة ، وإنما رغبة فى الانتقال بالقارئ من عهد إلى عهد ومن مقصد إلى مقصد لتحصل البركة من كل جانب ، ونلم بأعمال حماة الإسلام فى كل صقع وناحية ليكون هذا العمل من جهة الدلالة على الخير الذى فعلوه فذلكة لهم .

إن الدولة الأموية أجل قدراً من أن تنحصر أخبار خلفائها وساستها فى هذا العدد اليسير أو يسع أخبارها مثل هذه السوانح ، فما هذا وأمثاله إلا غيض من فيض .

وقد حدثتنا النفس أن نجعل بين تراجم ساداتنا خلفاء بنى أمية وساداتنا خلفاء بنى العباس نبذة تاريخية (وهى هذه) نبين فيها انتقال الدولة ثم نلحقها بترجمة أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة لبنى العباس ، فإن كنا أصبنا فيما فعلنا فللّه الحمد ، وإن كنا أخطأنا فبيت الخطأ ومعدته .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١) ، وقال الحكيم وقد عزى بعض من خرجت عنه مملكته : (لو بقيت لغيرك لما وصلت إليك) .

دالت الدولة للعباسيين ، فإذا هى من كبار الدول وأعظمها فى الدهاء والتحيل، ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فأطاعها الصلحاء تديناً والباقون رغبة أو رهبة ، واستمرت الخلافة والملك نحواً من ستة قرون استقبلت

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٠ .

فيها عظائم الأمور وطرَّت عليها دول كدولة بنى بويه وفحلها عضد الدولة فناخسرو ، ودولة بنى سلجوق وكبشها طغرليك ، ودولة خوارزمشاه ، وفيها مثل علاء الدين الذى اشتملت جريدة عسكره على أربعمائة ألف مقاتل ، ودولة الفاطميين بمصر وعسكرهم لم ير أكثف منه ، فضلاً عن الخوارج والجموع الذين لم تبلغ استطاعتهم مناصبة عزة الملك ومعاندته وجدع أنفهم الشامخ عن متابعة الاستكبار بأقل الأذى وأقل السخط .

كل هذا لم يقو على إزالة ملكهم ولا محو أثرهم ، بل كان الملك من هؤلاء يجمع ويحشر ويقبل بالعسكر الجرار والخميس العظيم حتى يصل بغداد ، فإذا وصل التمس الحضور ، فإن أذن له قبل الأرض بين يدى الخليفة وقصارى متمناه أن يوليه عملاً أو يعقد له لواء أو يخلع عليه خلعة .

كانت لهم فى نفوس الناس منزلة لا تدانيها منزلة أبداً حتى إن السلطان «هولاكو» لما فتح بغداد وأراد قتل الخليفة أبى أحمد المستعصم ألقوا فى سمعه أنه متى قتل الخليفة اختل النظام فى العالم فاحتجبت الشمس وامتنع القطر .

أتت لها هذه العظمة وأصبح لها ذلك الاعتبار فى النفوس بما روى عن رسول الله ﷺ من أنه كان يجرى على لفظه الشريف ما معناه : « البشارة بدولة هاشمية» (١) ، وزعم قوم أنه قال لعمه العباس رضى الله عنه : « إنها تكون فى ولدك » (٢) .

كانت النفوس متطلعة لهذه الدولة ينتظرونها صباح مساء يظنون فيها الخير أكثر مما كانوا فيه ، فكان فيهم عطف عليها وحنان لها .

دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم قامت فيها أسواق العلوم ونفقت فيها بضائع الأدب ، وعظمت فيها شعائر الدين ، ودرت عليها الدنيا بخيرها ، وروعيت فيها الحرمات ، وحصنت الثغور . كانت الدولة مستمسكة بالدين كما كان على عهد الخلفاء يحاسبون أنفسهم وينكر بعضهم على بعض إذا أخل بالعدل والمساواة ويحكمون بالشريعة ويتأدبون بآدابها .

---

(١) هذا ما ورد فى بعض المصادر التاريخية .

(٢) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

بلغت حضارة الإسلام فى دار السلام مبلغاً يندر مثله ، فأين التفت وجدت جمالاً ، وأنى نظرت رأيت مهابة وجلالاً ، أبهة ملوك ودعة زهاد ورخاء بال وارتقاء حال ، وانغماساً فى طيبات العيش ، والتصرف الواسع فى التجارة ، وجمع ظرائف الدنيا ، وتحرى العدل فى كل ذلك بأحكامه ، وأخذ الرعية بالحلم الواسع والسياسة بالكياسة .

اجتمع العلماء والأدباء والأمراء والندماء بأبواب الخلفاء وعلى الأخص الرشيد(١) الذى ألبس الدنيا جمالاً وخلع عليها جلالاً بملكه الذى لم يسمع عن أحد من الملوك .

تسامت فيها الدور والقصور بالبهاء والرفعة وبنيت فيها المنازل الرحبة المزخرفة والأسواق والمرافق والمكاتب ، واتصل تعداد النفوس ببغداد لمقدار لم يكن نصفه فى مدينة من العالم .

قصدتهم الناس وطمعت فى انفجار مكارمهم الخلق حتى صار يضرب بهم المثل فى سعة العطاء ، وكان مع ذلك بيت المال فى عمران تشتمل خزائنه على العين والورق والأمتعة والكسارى والغلات وغير ذلك ، والأمة بالغة مبلغها فى العلم والأدب والصناعة .

انتهى العز والرفاه بأهل الأمر والجاه إلى أقصى غايته حتى اتخذت الإبر للجوارى من الذهب وصاغوا المسامير التى تدق فى مجالسهم لتعليق المناديل من الذهب (٢) ، وكسيت حيطان منازلهم بالوشى وتأنقوا فى جميع أدوات الزينة

---

(١) أقام فى الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً ، وهو من أجل ملوك الأرض ، له نظر فى العلم والآداب ، وكان يصلى فى كل يوم وليلة مائة ركعة ، ويتصدق من خالص ماله كل يوم بألف درهم ، وكان يحب العلم ويوقر أهله ، وكانت أيامه من حسنها كأنها أعراس ، وله أخبار كثيرة فى اللهو واللذات ، ومات سنة (١٩٣ هـ) .

انظر : الإمامة والسياسة : ٢/١٥٢ - ١٥٧ ، الأنباء فى تاريخ الخلفاء ٧٥ - ٨٨ ، البدء والتاريخ : ٦/١٠١ - ١٠٧ ، البداية والنهاية : ١/٢١٣ - ٢٢٢ ، تاريخ الخلفاء ٣٠٧ - ٣٢٢ ، تاريخ خليفة بن خياط ٤٨٠ ، المحبر ٣٨ - ٣٩ ، المعارف ٣٨١ - ٣٨٣ ، مروج الذهب : ٢/٢٦٧ ، العقد الفريد : ٥/١١٧ - ١١٨ ، التنبيه والأشراف ٣٤٥-٣٤٦

(٢) لعل مثلها مثل الآلة الغربية المستعملة الآن لوضع الملابس عليها المسماة فى لغتهم «بورت مانتو» .

والمباهاة بها كالخيل والسلاح والأوانى والجواهر والغلمان والقيان ، وجميع طيبات الزمان حتى ضرب المثل بهم فى الآفاق وجلبوا إلى بساتينهم طيبات الزهور من الهند والرياحين من الصين ، واتخذوا مقاعدهم على حالات غريبة فتراها فى الشتاء كناكمينا وفى الحر ما بين الماء المتدفق غزارة من السقوف والحيطان والنابع من الأرض والمتفجر من جوانب المكان ، وكل ذلك فى أفواه صور كصور السباع والثعابين ، وما شابه ذلك ، وقد علقت المراوح فى سقوف المكان ، ووضعت الحبال التى تجر بها من الخارج ، فإذا حركت هب النسيم فترطبت الأجسام ولذ المنام .

لما أراد الله قيام هذه الدولة نما الشر وخلقت أسبابه وكثر الهرج والمرج وفتح بابه ، وثارت الفتن ، واضطرب الحبل ، واختلفت الكلمة ، فظهر أبو مسلم بدعوة بنى العباس ، واجتمع عليه كل من له فى ذلك رأى من أهل خراسان .

انظر للبلاد وما كانت عليه ، كان أهل الحجاز قليلين ، وأهل البصرة والكوفة وتلك الحوالى منحرفين عن الوحدة فى نظر الناس لخذلانهم وغدرهم فى سوابق ما جرى منهم ، ولم يبق إلا مصر والشام مع دولة بنى أمية .

ظهر أبو مسلم الخراسانى ومعه أصحابه أصحاب الرايات السود ، وحارب عسكر مروان تحت قيادة نصر بن سيار (١) وهزمه .

يعجب الإنسان لهذه القلوب كيف سخرها الله لتنفيذ قضائه العادل وإبراز مكنون حكمته فى خلقه . يقوم أبو مسلم بهذه الجيوش يبذلون المهج وينفقون الأموال ويجبون الخراج وينادون باسم الإمام إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس وهو فى المسجد لا يفارقه ، وأهل خراسان لا يفرقون بين اسمه وشخصه، وهو لا يدخل أيضاً فى شىء من هذا ، فلا ينفق عليهم ولا يعطى أحدهم سلاحاً وهم يحملون إليه الخراج .

ثم قدر الله أن يقتل هذا الإمام الذى قامت باسمه هذه الدعوة كأنما فرغ من عمله ، وكأنما هو لا يصح أن يكون إلا مقدمة لغيره .

خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم فهربوا وقصدوا الكوفة

---

(١) انظر : التفاصيل ، أخبار الدولة العباسية لمجهول ، تحقيق : عبد العزيز الدورى .

ونزلوا داراً أخلاها لهم أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال من كبار الشيعة فدخلوها مع أتباعهم ، وكتموا سرهم واجتمعت الشيعة بهم وقويت شوكتهم .

قصد أبو مسلم دار الخلال وفيها السفاح والمنصور فقال : أيكم ابن الحارثية ؟ قال المنصور : هذا ، وأشار إلى السفاح ، وكانت أمه حارثية فسلم عليه بالخلافة ثم خرج السفاح ومعه إخوته وعمومته وأقاربه وأكابر الشيعة وأبو مسلم بين يديه إلى الجامع ، فصلى وصعد المنبر وأظهر الدعوة وخطب الناس وبويع له بالخلافة سنة (١٣٢ هـ) .

ثم سلب الله ما كان لمروان آخر خلفاء بنى أمية من الصولة والقدرة حتى عصته العسكر ونابذته قواده ، وكان جيشه فوق المائة ألف ، فلم يغن عنه شيئاً ، وتولى أمره الخذلان حتى انهزم وهرب وقتل فى قرية أبى صير من قرى الغربية على الشاطئ الغربى للنيل الشرقى ، وهو آخر الخلفاء فى هذه الدولة .

ولا بد لنا قبل ختم هذه السطور من ذكر شيء حفظه التاريخ لهذه الخلافة ، وهو أن بنى أمية وإن كانوا أعطوا الملك حقه من الفتوح والتغلب والعدل فى القضاء وحفظ الأمن والراحة ، (وأنى لنا بمثل تلك الأيام) فإن الفوضى العلمية التى ظهرت فى أواخر دولتهم والأحاديث التى وضعت مختلقة على الرسول ﷺ فرقت الأمة إلى مذاهب مختلفة كالخوارج والمعتزلة والجبرية ، وأخرجت الخلافة عن رتبتها العلمية الدينية وأبعدتها عن حدها وعهدها ، وقام الملك أخيراً على العصبية فانحرفت عن العدالة العامة والعلم الدينى ، وهما أقوى أركان الخلافة وانتشر التفرق فى البلاد الإسلامية ، ولم يجمع القادة أمر الناس على عقيدة واحدة ، بل تركوهم مع هذا السيل الجارف .

لذلك تقوضت دعائم هذه الدولة وانقسمت إلى خلافتين : خلافة عباسية فى دار السلام ، وخلافة أموية فى الأندلس ، قام بالأولى الإمام السفاح ، وبالثانية الإمام عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الأموى الذى فر من السفاح ولجأ إلى قبيلة زناته أعظم قبائل أفريقيا ، ونحن ذاكرون شيئاً من تاريخ خلفائها الذين هم خير خلفاء وناقلون سيرتهم الحسنة بعد الفراغ من تراجم من يعين عليه الله سبحانه وتعالى من الخلفاء العباسيين ، والله أعلم .

* * *

(ترجمة أبى مسلم الخراسانى) (*)

هو عبد الرحمن بن سالم وتسميه جماعة المؤرخين بصاحب دولة ، أو صاحب دعوة بنى العباس ، أو صاحب الدولة العباسية ، أو بأمير آل بيت رسول الله ﷺ .

اختلفوا فى نسبه ، فمن قائل : إنه عربى ، ومن قائل : إنه عجمى ، ومن قائل : إنه كردى ، وقد قال هو عن نفسه : (كفاك خبرى عن نسبى) .

ترعرع أديباً ، ونشأ لبيباً ، وكان يشار إليه فى صغره لفرط ذكائه ووفور عقله.

ولد فى سنة مائة بأصبهان ، وكان أبوه قد أوصى به إلى عيسى بن موسى السراج فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين ، ثم جمع بينه وبين إبراهيم الإمام فأقام معه حتى بلغ أشده ، ثم قال له : غيِّر اسمك وكنيتك « وكان يسمى أبا إسحاق » ، فتسمى بـ « عبد الرحمن وتكنى بأبى مسلم » ، زعموا أن الإمام وجد لذلك شيئاً فى الجفر وتحقق أن الأمر لا يتم على يده إلا بعد تغيير اسمه لعلامات رآها هو بها أعلم وأخبر .

ولعله إذ قدم على الإمام شاهد فيه عقلاً وذكاء ودهاء ، فأعجب به فعقله عنده حتى كان ما كان من قيامه بالدعوة له فى خراسان .

يشترك أبو مسلم مع جماعة من الذين طالت أعمالهم وقصرت أعمارهم ، فإنه ولد سنة مائة والخليفة يومئذ سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر دوخ فيها أهل الأرض ، وكان له يوم قتله المنصور ثلاث وثلاثون سنة ، فهو كالاسكندر الرومى صاحب الفتوحات ، أو كابن المقفع حكيم الفرس والعرب ، أو سيبويه شيخ العربية ، أو أبى تمام أبى الشعراء ، أو إبراهيم النظام أمير علم الكلام وغيرهم ممن لا يقطع العقل بجواز أن تكون أعمارهم القصيرة ظروفاً لأعمالهم الخطيرة التى دونت عنهم .

(*) انظر : تاريخ الطبرى ، الكامل فى التاريخ ، المختصر فى أخبار البشر ، تاريخ الخلفاء .

كان أبو مسلم جميلاً ، قصيراً ، أسمر ، حلواً ، نقى البشرة ، أحور العين ، عريض الجبهة ، حسن اللحية وافرها ، طويل الشعر ، طويل الظهر ، قصير الساق ، خافض الصوت ، فصيحاً بالعربية والفارسية ، حلو المنطق ، راوية للشعر ، عالماً بالأمور ، لم يُر ضاحكاً ولا مازحاً إلا فى وقته ولزومه ، ولا يكاد يغضب فى شىء من أحواله ، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الحوادث الجسام فلم ير مكتئباً ، وإذا غضب لم يستفزه الغضب ، كثير الغيرة ، شديد البطش ، شجاعاً فاتكاً ، ذا عقل ورأى وحزم وتدبير . كل هذه الخصال الجميلة والنعوت الشريفة هيأت هذا المقدام الهمام لأن تتعلق به دعوة بنى العباس ، ويكون به إقامة دولتهم وإبادة دولة بنى أمية .

سئل أبو مسلم ، فقيل له : بِمَ نلت ما أنت فيه من القهر للأعداء ؟

فقال : ارتديت الصبر ، وآثرت الكتمان ، وحالفت الأحزان والأشجان ، وسامحت المقادير والأحكام حتى بلغت غاية همتى وأدركت نهاية بغيتى .

ومما يدل على علو همته أنه ورد حال الدعوى « نيسابور » ليلاً على حمار ، وليس معه آدمى فقصد دار « الدهقان » ، فدق عليه الباب ففزع أصحابه وخرجوا إليه فقال لهم : قولوا للدهقان : إن أبا مسلم بالباب يطلب ألف درهم ودابة ، فقالوا للدهقان ، فسألهم فى أى زى وأى عدة هو ؟ فقالوا : وحده فى أدون زىّ، فسكت ساعة ، ثم أمر له بما طلب ، فلما ملك وفتحت نيسابور ، قيل له: خذ ما تريد من مال « الدهقان » المجوسى ، فقال : « إن له عند أبى مسلم يداً»، ثم أتته هداياه فردها ولم يتعرض بشىء له ولا لأتباعه .

ومن نوادره أنه كان يشتغل عند خراز بالكوفة ، فبينما يخرز شيئاً رأى الناس يتعادون ، فقال : ما الذى بهم ؟ قالوا : فيل دخل الكوفة ، فقال : وأنى فى دخول فيل الكوفة من العجب ؟ العجب فىّ أن أقلب دولة وأقيم أخرى .

بدأت الدعوة العباسية سنة اثنتين ومائة على ما استقصيناه ، وكان أول ظهورها بخراسان (بلدة أبى مسلم) ، وكأنما قارنها فى المولد ليشبا معاً وينشئا سوياً .

اختلفوا فى أول من قدم خراسان ، فمن قائل : إن ميسرة وجه رسله بالدعوة من العراق إليها ، ثم وشى بهم عمرو بن بجير بن ورقاء السعدى إلى سعيد حذينة عاملها ، فقال : إن هاهنا قوماً ظهر منهم كلام فى الخلافة وأعلن بهم

فسألوهم ، فقالوا : نحن من التجار ، وأن لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلاً عن هذا وجاءت أناس فكفلوهم فخلى سبيلهم .

ومن قائل : إن أول من دخل خراسان الدعاة الذين وجههم « بكير بن ماهان) وفيهم أبو عكرمة ، وأبو محمد الصادق وغيرهم سنة سبعة ومائة ، ومن قائل : إنهم دعاة « محمد بن على بن عبد الله بن عباس » ، وفيهم زياد أبو محمد مولى همدان ، وقد اتفق أصحاب الروايتين أن ذلك وقع فى هذه السنة وفى ولاية أسد على خراسان .

أساء هؤلاء الدعاة سيرة بنى أمية وأطعموا الطعام على حب بنى العباس ، وصارت المناظرة فى تفضيل آل على وآل عباس حتى بلغ أمرهم أسداً ، فأحضر زياداً وقال له : ما الذى بلغنى عنك ؟ قال : الباطل ، إنما قدمت إلى تجارة ، وفرقت مالى على الناس ، فإذا اجتمع خرجت ، فأمره بالخروج فلم يخرج ، وعاد إلى أمره فخاف منه أسد ، وأحضره وقتله بالسيف مع عشرة من أصحابه ، قالوا : ولما بلغ الخبر محمد بن على بن عبد الله بن عباس قال : (الحمد لله الذى صدق دعوتهم ومقالتهم وقد بقيت منهم قتلى ستقتل) ، ثم وجه « بكير ابن ماهان » سنة ثمان عشرة ومائة عمار بن يزيد والياً على شيعة بنى العباس ، فنزل مرو وغير اسمه وتسمى « بخداش » ، ودعا إلى « محمد بن عبد الله بن عباس » فسارع إليه القوم وأطاعوه ، ثم أباح لهم عدم الصلاة والصوم ودعاهم للفجور بنساء بعض ، وقال : إن ذلك بأمر محمد بن على ، فظفر به أسد والى خراسان وسمل عينيه وقطع لسانه ، فبلغ ذلك محمد بن على ، فترك مكاتبتهم ومراسلتهم ، فبعثوا إليه سليمان بن كثير يعلمه أمرهم فصرفه إلى خراسان ، وأرسل معه كتاباً مختوماً ففضوه ، فلم ير فيه إلا (بسم الله الرحمن الرحيم) فعظم عليهم ذلك وعلموا أنهم خالفوه ، وبعث للنقباء أيضاً بعصى مضببة بعضها بحديد وبعضها بالنحاس ، وأخذ كل واحد من النقباء عصا ، وهى إشارة لما كانوا عليه من مخالفته ورجوعهم لطاعته [١] .

ثم جمعوا أمرهم وقاموا بالدعوة وابتدأ اضطراب حبل بنى أمية ، وهاجت

---

(١) العصى المضببة بالنحاس أو الحديد : هى علامة النقيب للآن فى طرق الصوفية ، ولعلها من هنا أخذت .

عليهم الفتنة ، وخرج سليمان بن هشام بن عبد الملك من الحبس ، وأخذ ما كان بعمان من الأموال ، وأقبل إلى دمشق يلعن الوليد ويرميه بالكفر .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة ، وهى أول سنة الأعمال الجسيمة ، توجه فيها سليمان بن كثير ومعه أبو مسلم وجماعة من الشيعة إلى مكة ، والتقوا بإبراهيم الإمام ودفعوا إليه ما كانوا يحملون من المال والمتاع ، فكتب كتاباً لأبى مسلم يأمره فيه بالعمل ، ووجهه الخراسانى وعمره إذ ذاك نحواً من أربع وعشرين سنة .

قال فى كتابه للأصحاب والشيعة :

أما بعد : فإنى قد أمرت عليكم أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا .

أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك ، فكبر على شيوخ الشيعة قبول إمرته لصغر سنه ، وخرج بعضهم إلى مكة ليلاقوا الإمام ، فإذا به مجمع على رأيه على أبى مسلم وألزمهم طاعته فأطاعوه ، ثم كتب إلى أبى مسلم أنك رجل منا آل البيت أحفظ وصيتى ، انظر هذا الحى من اليمن فالزمهم واسكن بين ظهرانيهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ، ولا تعص عليه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى .

قام أبو مسلم بالدعوة حق قيام ولم يبق قلب إلا قلبه على بنى أمية ، ولا بلد إلا أوحشه منهم ، فغير النوايا وبدل الضمائر والأفكار بما بثه وأظهره من حجج الهاشمية ، وما كشف من معايب الأمور ، فلم تلبث إلا وقد لزمت الطاعة وتنادت بالدعوة لبنى العباس ، وجاءت من كل الأرجاء والمواقع ليقع فى ملكه ما يريد .

قام أبو مسلم مع النقباء والنجباء ، وبث الدعاة وبرز للمغالبة والمباراة ، فأزال ملك أعدائه عن مستقره ، وثبت ملك أوليائه فى نصابه فشفى الله صدوراً وأدرك بسيفه ثأراً . فتح البلاد وأقام أصل الدولة ، وفلح مغرس هذه الشجرة وغرسها وثبتها ، وأقام مقام أصحاب الدعوة بوتيرة واحدة ومنهاج غير مشترك ، ودان بالطاعة مع أصحابه يقتلون فيها ويموتون عليها .

أصحابه الخراسانية أصحاب الرايات السود يروون حديثاً مأثوراً معناه : (صفة الذين يفتحون عمورية ويظهرون عليها ويقتلون مقاتلتها شعورهم شعور النساء وثيابهم ثياب الرهبان) ، وهم كذلك كانوا أصحاب صدور سليمة وقلوب باسلة لم تفسدها الأهواء ولم تخامرها الأدواء ولم تعتقبها البدع ، وهم خير جند لخير قائد ، فكأنهم لم يخلقوا إلا لقلب الدول وتأييد السلطان .

ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة ، فكتب إليه إبراهيم الإمام يستدعيه ليسأله عن أخبار الناس ، فسار نحوه فى النصف من جمادى الآخرة مع النقباء ، فلما وصلوا قومس [1] وافاه كتاب الإمام يقول له فيه : إنى قد بعثت إليك براية النصر، فارجع من حيث لقيك كتابى ووجه إلىّ قحطبة بما معك يوافينى ، فانصرف أبو مسلم إلى خراسان ، وذهب قحطبة إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض ، ونزل أبو مسلم قرية من قرى مرو يقال لها مفنون (بلدة بمرو) ، ولبس السواد وبعث النقباء والنجباء يدعون لطاعة بنى العباس ، ودارت رحى الحرب والقتال ، وانتقل أمرهم من القول إلى الفعل ، وأخذت البيعة إلى الإمام علانية ، ثم عقد اللواء الذى بعثه الإمام إليه الذى يدعى « الظل » ، والراية التى تدعى « السحاب » ، وأمر بإشعال النيران للشيعة ، وهى علامة اجتماعهم فاجتمعوا وتأولوا لذلك كلاماً ، فقالوا : « الظل والسحاب » يعنى أن السحاب يطبق الأرض وإن الأرض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسى إلى آخر الدهر .

ثم قدمت الدعاة على أبى مسلم من كل فج وناحية وأتته الرجال راجلين وركباناً يكبرون من ناحيتهم ، فيجيبهم غيرهم من ناحية أخرى ، فتربص بهم مكانه ، وكان عيد الفطر فنصبوا منبراً بالعسكر ، وأمر سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ، ويبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ، وكانت بنو أمية تبتدئ بالخطبة قبل الصلاة وبالأذان والإقامة مع تغيير كثير فى عدد التكبيرات ، واختلاف فى كونها تباعاً ، ففعل ثم انصرفوا بعد الصلاة إلى طعام فأكلوه ، وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار قائد جيوش بنى أمية كتاباً قال فيه :

إلى نصر .

(١) قومس بالضم وفتح الميم : صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

أما بعد : فإن الله تبارك أسماؤه غير أقواماً فى القرآن فقال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً اسْتِكْبَاراً فِى الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾(١) .

فتعاظم نصر الكتاب وكسر له إحدى عينيه ، وقال : هذا كتاب ما له جواب .

ثم وجه أبو مسلم أشياعه مثل مالك بن الهيثم الخزاعى ، وحازم بن خزيمة ، والتقوا بعسكر بنى أمية وجيوشها ، وذهب غير أولئك إلى جهة أخرى فشردوهم عن المواقع والأماكن ، وقتل من قتل منهم كشيبان الخارجى من أكابر القواد والكرمانى وابنيه ، ودخل أبو مسلم « مرو » وصفت له على يد أبى منصور طلحة ابن زريق أحد النقباء ، وكان عالماً بالحال ملحناً بالحجة ، وهو أحد الاثنى عشر نقيباً المنتخبين من السبعين الذين استجابوا لرسول محمد بن على فى أول الأمر .

ثم دخلت سنة اثنين وثلاثين ومائة بويع فيها أبو العباس عبد الله بن محمد بن عبد الله الملقب بالسفاح بسبب قبض مروان الحمار على إبراهيم بن محمد الإمام وحبسه وقتله (كما هو مبسوط فى أماكنه من كتب التاريخ) ، وكان الإمام قد نعى نفسه إلى أهل بيته قبل ذلك ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد وبالسمع والطاعة له ، وأوصى إلى أبى العباس الملقب بالسفاح بالخلافة ، فلما وقع ذلك ساروا فقدموا الكوفة مع شيعتهم ، فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم (كما تقدم الكلام فى النبذة التاريخية) ، وجاءت القواد وسلمت عليه بالخلافة ، ثم لبسوا السلاح وطلبوا خروجه واصطفوا له ، وأتوا بالدواب فركب برذوناً أبلق ، ودخلوا دار الإمارة ، ثم خرج إلى المسجد ، فخطب وصلى بالناس ، ثم وافت الأخبار بهزيمة مروان « بالزاب » ، ثم التقى به عبد الله بن على عم السفاح فهزمه الهزيمة الكبرى وفر إلى مصر وقتل .

قامت الدولة العباسية مبتدئة بأول خلفائها أبى العباس عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس وهو الملقب بالسفاح ، فأقر أبا مسلم على خراسان

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤٢ ، ٤٣ .

ولا زال بها لا يفارقها إلى سنة ست وثلاثين ، ثم كتب إليه أبو مسلم يستأذنه فى القدوم عليه والحج ، فأذن له ووافق ذلك طلباً من أبى جعفر المنصور أيضاً بالحج فأذن له ، فلما كانا فى الطريق خمل معه ذكر أبى جعفر ، لأن أبا مسلم كان يكسو الأعراب ويصلح الآبار والطريق ، وكانت الذكرى له ، ولما صدر عن الموسم تقدم فى الطريق ، ثم أتاه خبر موت السفاح ، فكتب إليه يعزيه ولم يهنئه بالخلافة . كل هذا وأمثاله جعل أبا مسلم فى نظر المنصور ممن أحسن مبتدأ وأساء معقباً ، وقد غلب عليه سوء الظن حتى رجح فيه قبح الباطن على حسن الظاهر ، وخبث السريرة وفساد النية على حسن الخدمة والبلاء الحسن ، فأمضى فيه حكمه وقتله بعد أن استدعاه وأدناه وجالسه مجلساً كثر فيه الأخذ والرد كما سيأتى ذلك فى ترجمته إن شاء الله .

❊ ❊

(موعظة)

قال الإمام الفخرى (*) : لما قدر الله انتقال الملك إلى بنى العباس هيأ لهم جميع الأسباب ، فكان إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بالحجاز جالساً على مصلاه مشغولاً بنفسه وعبادته ومصالح عياله ليس عنده من الدنيا طائل وأهل خراسان يقاتلون عنه ويبذلون نفوسهم وأموالهم دونه وأكثرهم لا يعرفه ولا يفرق بين اسمه وشخصه ، وانظر إلى إبراهيم الإمام هو بتلك الحالة من الانقطاع بداره واعتزال الدنيا وهو بالحجاز ، وله مثل هذا العسكر العظيم فى خراسان يبذلون نفوسهم دونه لا ينفق عليهم مالاً ، ولا يعطى أحدهم دابة ولا سلاحاً ، بل هم يجبون إليه الأموال ويحملون إليه الخراج فى كل سنة .

ولما قدر الله تعالى خذلان بنى مروان وانقراض ملك بنى أمية كان مروان خليفة مبايعاً ، ومعه الجنود والأموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده ، والناس يتفرقون عنه ، وأمره يضعف ، وحبله يضطرب ، فما زال يضمحل حتى هزم وقتل وأكلت لسانه هرة .

(*) صاحب كتاب الآداب السلطانية « الفخرى فى الآداب السلطانية » .

فتعالى الله عما يشركون . ا هـ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

* * *

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(أبو جعفر المنصور) (*)

نستفتح الخلافة العباسية باسم هذا الخليفة العظيم ثانى الخلفاء العباسيين لأسباب :

منها : أن جماعة المؤرخين قالوا : إن فى بنى العباس فاتحة ، وواسطة، وخاتمة ، والفاتحة عندهم المنصور ، والواسطة المأمون ، والخاتمة : المعتضد .

ومنها : أن هذا الخليفة أحق بالتقديم لأنه جمع أشتات الفضائل بما أعطاه الله من القوتين العلمية والحربية .

هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . ولد فى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين ، وأدرك جده ، ولم يرو عنه ، وروى عن أبيه ، وعن عطاء بن يسار (1) . وبويع له بالخلافة فى شهر الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وتوفى لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ببئر ميمون مع السحر وهو محرم ، ودفن بمقبرة المعلاه والمسافة بينهما ثلاثة أميال ، فمدة خلافته اثنان وعشرون سنة ، ومدة عمره ثلاث وستون سنة .

كان أسمر نحيفاً ، خفيف العارضين وقوراً ، كامل العقل ، جيد المشاركة فى العلم والأدب ، فقيه النفس ، فصيحاً بليغاً مفوّهاً خليقاً بالإمارة وجبروتها مدبراً لأمور المملكة .

قسم زمانه وساعاته قسمة حكمة ، فكان صدر نهاره للأمر والنهى والولايات

(*) انظر : تاريخ خليفة بن خياط ٤٤١ ، مآثر الإنافة : ١/١٧٥ - ١٨٣ ، المختصر فى أخبار البشر : ٢/٧ - ٨ ، تاريخ الخلفاء ٢٨٤ - ٢٩٦ ، مروج الذهب : ٢/٢٢٣ ، نهاية الأرب : ٢٢/٦٦ - ١٠٨ ، المحبر ٣٤ - ٣٦ ، الإمامة والسياسة : ٢/١٣٣ ، خلاصة الذهب المسبوك ٥٩ - ٩٠ ، تتمة المختصر : ١/٢٩١ - ٣٠٠ .

(1) هو عطاء بن يسار الهلالى أبو محمد المدنى القاضى ، مولى ميمونة ، ثقة ، كثير الحديث ، مات سنة (١٠٣ هـ) ، وقيل : (١٠٤ هـ) ، وقيل أيضاً : سنة (٩٤ هـ) .

انظر : العبر : ١/١٢٥ ، طبقات ابن سعد : ٥/١٢٩ ، شذرات الذهب : ١/١٢٥ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٢٦ ، تهذيب الأسماء واللغات : ١/٢٣٥ ، تذكرة الحفاظ : ١/٩٠ .

والعزل وشحن الثغور والأطراف وتأمين السبل والنظر فى الخارج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهدايتهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس للنظر فى كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه ، فإذا مضى الثلث قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر فيخرج للناس فيصلى ثم يدخل إيوانه .

وكان لحبه العدل واستقامة أمور المملكة يستقل ذلك ، وقد سمع منه أنه قال : (ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر : قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، وصاحب خراج لا يظلم الرعية) ثم عض على أصبعه وتأوه فقيل : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : (صاحب بريد يكتب إلىّ خبر هؤلاء على الصحة) .

نمت فى عصره القوة العلمية ، فقد عاصر كثيراً من الأئمة الأجلاء ، منهم : الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك بن أنس . وكثر تدوين علماء المسلمين فيه للعلوم ، كالحديث والتفسير ، فصنف ابن جريج بمكة ، ومالك الموطأ بالمدينة ، والأوزاعى بالشام ، وابن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ، ومعمر باليمن ، وسفيان الثورى بمكة ، وصنف ابن إسحاق المغازى وابتدأ تدوين العلم وتبويبه ، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، وكان الأئمة فى هذا العصر يعلمون العلوم إملاءً من حفظهم .

هو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية بالعربية كإقليدس وكليلة ودمنة ، وكان هو أعلم الناس بالحديث والأنساب مشهوراً بطلبه ، كان بليغاً لسناً فصيحاً ، أخرج الأصمعى وغيره أنه صعد المنبر فقال : (الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له) فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، اذكر من أنت فى ذكره ؟ فقال : (مرحباً مرحباً ، لقد ذكرت جليلاً وخوفت عظيماً ، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم والموعظة منا بدت ومن عندنا خرجت ، وأنت يا قائلها فاحلف بالله ما الله أردت ، وإنما أردت أن يقال : قام ، فقال فعوقب فصبر فأهون بها من قائلها واهتبلها من الله ، فإنى قد غفرتها ، وإياكم معشر الناس من

أمثالها ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله) فعاد إلى خطبته كأنما يقرؤها من قرطاس .

كان المنصور من أعظم الخلفاء ذوى الآراء التامة الصائبة ، وأعلمهم وأعقلهم وأحزمهم وأشجعهم ، وله من التدبيرات السديدة ما يستحق أن يدون ليحتذى به ويؤخذ منه ويقاس عليه .

ومن أغرب ما يؤثر عنه مما يدل على تفطنه ودقته أنه لما أدركته الوفاة قال لابنه المهدى : يا بنى ، إن فى بيت المال مالاً أخذته العمال من أصحاب الجنايات على وجه المصادرة تأديباً لهم وزجراً ، ولقد أفردت كل شىء منه ، وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فربما كان منهم ما يوجب رده إليهم .

كان أعلم الناس بضبط أحوال الممالك وترتيب القواعد وإقامة ناموس كل شىء، غالب الدهر والأيام حتى كف عاديهما عنه ، وتوطدت أركان الممالك له وعظمت هيبته فى النفوس ، ولولا بأسه وشدته ما دانت الأمصار إليه بعيدها وقريبها ، وأصبحت خلافته موطدة الأركان قويمة البنيان ، فإن آل مروان لم تبل رممهم ، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ، والناس قد رأتهم أمس على حال واليوم أصبحوا عليهم خلفاء .

كان حازماً لا يعرف اللهو ولا ما يشبه اللهو ولم ير فى داره ذلك . قال سلام الأبرش : كنت أخدم المنصور داخلاً ، وكان من أحسن الناس خلقاً فى الخلوة ، بل من أشد الناس احتمالاً لما يكون فيها ، فإذا خرج من المجلس العام أربدّ لونه وكان مع ما وهبه الله من السؤدد والمجد فقير النفس ، فكان يرفع ثوبه ويلبس القميص الخشن (ونعم المبتلى) .

كان شجاعاً صارماً مقداماً لا يرهب الموت ، يقظاً لا يفلت عدوه . قال يزيد ابن عمر بن هبيرة : ما رأيت رجلاً فى حرب أو سلم أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظاً من المنصور ، حاصرنى تسعة شهور ومعى فرسان العرب فجهدنا الجهد الجهيد فلم ننل من عسكره شيئاً ، وحصرت وما فى رأسى شعرة بيضاء ، وانقضى الحصار وليس فيها سوداء .

يعد مخاطراً من فرط شجاعته حتى قيل : إنه أخطأ فى ثلاث : قتل أبى

مسلم وهو فى جماعة قليلة وحين خرج إلى الشام ، ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ، ويوم الراوندية ولو أصابه سهم لدكت المملكة وغدا الكل أثراً بعد عين، فأما قتله لأبى مسلم وخروجه إلى الشام فقد يتفق ذلك لبعض الأنام ، ولكن المعجز يوم الراوندية .

وصفوة الخبر : أن جماعة من أهل خراسان يبلغ عددهم ستمائة نفس يقولون بالتناسخ على رأى أبى مسلم أحاطوا بقصره وقالوا : أنت إلهنا ، فغضب وقال : يدخلهم الله النار فى طاعتنا ، ولا يدخلهم الجنة فى معصيتنا ، وحبس رؤساءهم فعمدوا إلى نعش فارغ وحملوه كأن به جنازة وقصدوا السجن ، فألقوه أمامه وكسروه ، وأخرجوا من فيه وقصدوا القصر ، فخرج بنفسه ماشياً [1] ، وصاحت الناس وغلقت أبواب المدينة وما زال حتى جىء له بدابة فركبها ، ثم جاء معن بن زائدة وأخذ بلجامها وصار يقاتل قتالاً ما رؤى قبله ، ويقتل بين يديه ويحميه حتى طفئت الفتنة .

فعن أى ملك أو سلطان يؤثر ذلك ؟ لا ندرى على أن هذه الأمور طالما كانت سبباً لضياع البلاد ، تقوم الثورة المدبرة فتنعقد يد الأمير عن التصرف فيها فتتسع (ومعظم النار من مستصغر الشرر) فضلاً عن أن تلم بطرف أجنبى فلا تلبث المدينة أو المملكة إلا وقد أصبحت مغنماً للعدو كما رأينا ذلك .

وقد كانت هذه الواقعة سبباً لبنائه بغداد لأنه كره الإقامة بالهاشمية ، فبناها بعدما أجمعت جماعة الحكماء على فضل مكانها : دجلة والفرات ، محيطان بها والميرة تأتى إليها فى دجلة من ديار بكر ومن البحر والهند والصين ، وفى الفرات من الرقة والشام وخراسان وبلاد العجم متوسطة بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد والساكن فيها قريب من البحر والبر والجبل ، وهى مدينة مباركة قالوا : إنه لم يمت فيها خليفة .

ابتدأ فيها سنة خمس وأربعين ومائة وأتمها سنة ست وأربعين ، وجعلها شبه دائرة وقصره فى مركزها ، قالوا : ليكون قربه من جميع الناس واحد ، فصرف

(١) لأنه لم يكن فى القصر دابة ، ومن ذلك اليوم ربط فرس النوبة بدور الخلفاء .

عليها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم ، وبلغ من دقة أمره فى حسابها أنه تقاضى البواقى لغاية خمسة عشر درهماً (وهكذا من أخذ حقه أعطى حق غيره) .

ثم بنى الرصافة وشيدها .

أحاطت بخلافته الفتوق والحوادث من كثرة الخارجين عليه فأفنت الفرسان وقتلت الأنصار وغلت يد الخلافة وأذاقت الأمة بأس بعضها ، وأتلفت الحصون والملاجئ وبددت المعاقل .

وكفى بالجيوش الخراسانية التى كانت مع الأمير « إسنادسز » (أى الخارج بلا سند ولا دليل) ، فقد عظم خطرها واستفحل شرها واشتد الأمر على المنصور ، فإن ضريبة جيشه كانت ثلاثمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، ولم يهزمْ إسنادسز حتى قتل فى موقعة واحدة من رجاله سبعون ألفاً فى واقعة مشهورة .

أدته حالة الملك ورغبته فى استقامته باستئصال جراثيم الفساد إن هجم بالعقوبة وتناسى العفو ، فكان جبروت خلافته شديداً ، ولم تفتح فى مدة خلافته إلا «طبرستان» لأن الحروب مع الخوارج غلبت عليه .

دخل فى طاعته ممالك الإسلام التى افتتحها الصحابة رضى الله عنهم وبنو أمية، إلا الأندلس بقيت بيد أهلها يتقاتلون على الإمارة حتى قدم عليهم ، فأصبح للإسلام رئيسين يتنازعان السلطة العباسية فى الشرق ببغداد ، والأموية فى الغرب بالأندلس .

ومن فضائل هذا الخليفة أنه وسع المسجد الحرام مما يلى دار الندوة ، وحصل بينه وبين ملك الروم الفداء ، واستنقذ أسرى المسلمين وحج حجة أغدق فيها على الناس ، حتى سميت عام الخصب ، ووقع فيها بينه وبين رجل من الحديث ما فيه مزدجر ومن العظة ما لا يتصور وقوعه ، والعجب أن مثل أبى جعفر يتقبله منه مع جبروته ، ولا تأخذه أنفة الملك ، وإنا ذاكروه ولو طال ، فإنه مما يطرز بالدرر واللآل :

قالوا : حج أبو جعفر ، وكان يخرج إلى الطواف فى آخر الليل يطوف ويصلى لا يعلم به أحد ، فخرج ذات ليلة سحراً وبينما هو يطوف سمع من يقول: اللَّهُمَّ إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق

وأهله من الظلم ، فأسرع المنصور حتى ملأ مسامعه منه ثم خرج ودعاه وسأله عن الذى سمعه ، فقال له : إن أمنتنى على نفسى أنبئك ، فأمنه وأدناه، وسأله فقال:

(يا أمير المؤمنين ، إن الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وما ظهر من البغى والفساد فى الأرض إنما هو أنت) قال : ويحك ، كيف يدخلنى الطمع وكل ما أريده فى قبضتى ؟ قال : (وهل دخل على أحد من الطمع ما دخل عليك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله عَزَّ وجَلَّ استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد ، وصحبة معهم السلاح ، واتخذت وزراء وأعواناً فجرة إن نسيت لم يذكروك ، وإن أحسنت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والرجال والسلاح ، وأمرت أن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف والجائع والعارى ، وما أحد إلا وله فى الأموال حق ، فلما رآك الذين استخلصتهم وأشرفتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يغيبوا عنك تجبى المال ولا تقسمه ، قالوا : قد خان الله ، فما بالنا لا نخونه وائتمروا على كتم أخبار الناس عنك إلا ما أرادوا ، ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ، فلما انتشر ذلك عظمهم الناس فهابوهم وصانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على الظلم ، ثم فعل ذوو الثروة والقوة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم ، وامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ، وإن جاء متكلم حيل بينه وبين الدخول إليك ، وإن أرادوا رفع قصة إليك وجدوك قد نهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلاً ينظر فى مظالمهم ، فإن جاء ذلك الرجل ، فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك ، فإن صرخ ضرب وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير ، فما بقاء الإسلام وأهله على هذا .

كانت بنو أمية لا ينتهى إليهم مظلوم إلا رفعت مظلمته ، ولقد كان الرجل يأتى من أقصى الأرض حتى يبلغ باب سلطانهم ، فينادى : يا أهل الإسلام فيبتدرونه فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم ، فينتصف له ، وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة ، وقد ذهب سمع ملكهم ، فجعل يبكى فقال له وزيره : مالك تبكى لا بكت عيناك ، فقال : أما إنى لست أبكى على

المصيبة إذ نزلت بى ، ولكن على عدم سمع صراخ المظلوم بالباب أبكى ، ولئن ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا المظلوم ، فكان يركب الفيل فى طرفى النهار هل يرى مظلوماً فينصفه .

هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله تعالى ، قد غلبت عليه رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه ، وأنت مؤمن بالله عَزَّ وجَلَّ وابن عم نبيه ألا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحدة من ثلاثة ، إن قلت : أجمعها لولدى فقد آتاك الله تعالى هذا الطفل الصغير وما له على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، ولا يزال الله عز وجل يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست الذى يعطى ولكن الله تعالى يعطى ، وإن قلت : أجمع المال لتشييد سلطانى فقد أراك الله عز وجل عبراً فيمن كان قبلك ولم يغن عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وما أعدوا من الصراع والكراع وما ضرك وولد أبيك عبد الله بن عباس ما كنت فيه من الضعف حين أراد الله عَزَّ وجَلَّ بكم ما أراد ، وإن قلت : أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل ؟ قال : لا ، فكيف تصنع بالمالك الذى خولك ما أنت فيه من ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم ، وهو الذى يرى منك ما خفى فيك ، فما تقول إذا انتزع ملك الموت الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ هل يغنى عنك ما كنت فيه شيئاً ؟ .

فبكى المنصور حتى ارتفع صوته ثم قال : (ليتنى لم أخلق ولم أك شيئاً ، كيف احتيالى فيما خولت ولم أر من الناس إلا خائناً ؟) .

فقال : (يا أمير المؤمنين ، عليك بالأئمة الأعلام المرشدين ، قال : ومن هم؟ قال : العلماء ، قال : فروا منى ، قال : هربوا مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقك ، ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم وامنع ، وخذ الشىء مما جل وطاب واقسمه بالعدل وأنا ضامن لك أن يأتيك من هرب منك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك ، فقال المنصور : اللَّهُمَّ وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل) .

ولا عجب من سكوت أبى جعفر وإصغائه لمقال الرجل وطلبه التوفيق فى العمل بما قال ، لأنه يتحرى الحق من الباطل ويعلم صحة ما يقال له وينزل إليه وهو متسنم المعالى ويتضاءل أمامه كما سمعت .

أكبر فخر للغربى على الشرقى الآن أن يفخر عليه بأن فى أهل الغرب من الرجال من يبادر ملوكهم بكلمة الحق وقوله الصدق ، وإن هؤلاء الملوك لا يصدفون عن النصيحة ولا يأنفون منها ما دامت عوناً لهم على طرق الحق واكتساب الخير ، ولكن كل الذى سمعناه عنهم دون هذا الموقف الذى ذهبت فيه معانى الخلافة من القهر والقوة والقدرة ، واستمعت فيه النصيحة بما يجب لها من الخضوع والخشوع .

وأعجب من هذا ما أخرجه عبد الله بن صالح قال : كتب المنصور إلى سوار ابن عبد الله قاضى البصرة بأن ينظر فى الأرض التى تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر وأن يدفعها إلى القائد ، فامتنع القاضى وقال : إنها من حق التاجر وكتب للمنصور بذلك ، فكتب إليه : والله الذى لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد ، فكتب إليه سوار يقول : والله الذى لا إله إلا هو لا أخرجها من يده إلا بحق ، فلما جاءه الكتاب قال : ملأتها والله عدلاً ، وصارت قضاتى تردنى إلى الحق .

لو كان أبو جعفر غير مغلول اليدين ، وكانت الحروب التى باشرها مع الخوارج عليه فتوحاً فى بلاد الغير ، كان زمنه يعد من أكبر الأزمان فى الفتوح والأعمال الحربية كما عد أكبر زمن فى الفتوح العلمية والتقدم فى المعارف ، ولكن قدر الله أن يكون سهمنا بيننا فى تلك المدة كما قدمنا ، وذلك من المنازعة على الملك وسمو الآمال إليه وعدم دفع الخارجين عليه إلا بالقوة الغالبة أو ينقرضوا .

كانت خزائن أبى جعفر ملآى بأنواع الأموال وجيوشه على قدم الاستعداد ، ولولا ذلك ما تمت له الخلافة وناهيك بوصيته للمهدى ، وقوله فيها : (إنى قد جمعت لك من الأموال ما يكفيك لأرزاق الجند والنفقات على اختلافها عشر سنين فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً ، وأوصيك بأهل

بيتك خيراً ، فإن عزك عزهم ، وانظر مواليك فإنهم مادتك لشدتك وإياك والتبذير فإن النوائب غير مأمونة ، ولا تتجاوز ما أمر الله به وأعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تثبت على بابك ، وسهل أذنك للناس ووكل بهم عيناً غير نائمة ونفساً غير لاهية ، ولا تنم وإياك ، فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه الغمض إلا وقلبه مستيقظ) .

فالمتأمل فى هذه الوصية يدرك أن الأمم الفقيرة لا بد أن تسترقها أخصامها بعلة الدين كما هو الواقع ، وهو أقرب سبب لأن تتملكها أو تستعبدها عداها ، وليس بين الأمة وبين محوها إلا أن تقصر يدها فى عدة حرب ، وقد وقفت إليها خصومها ، وعلمت منها ذلك وأن الانقسام والافتراق من شر الأوبئة على عائلة الملك ، لأنها تبيدها بيدها من غير حاجة لقوة الأعداء .

فنسأل الله أن يلم شعثنا ويوفقنا لما يريده من خير الدنيا وخير الآخرة ، ويرينا هذه المواقع التى ذكرناها من جهات بغداد وأنهارها عامرة غامرة بالعمار والترقى والحضارة والمدنية التى انبثت هناك أسبابها فى هذه الأيام فى ظل مولانا وسيدنا أمير المؤمنين الظليل أدام الله سلطانه وملكه ، وجعله للأمة الإسلامية ذخراً وسياجاً يحوطها من آفات الزمان ونوائب الحدثان ويد العدوان ، آمين .

❋ ❋ ❋

(المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور) (*)

هو المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور ، ولد سنة سبع وعشرين ومائة ، وبويع له بالخلافة فى سنة ثمان وخمسين بعهد من أبيه المنصور بعد موته (ببئر ميمون كما تقدم فى ترجمته) ، فلما وصل الخبر إليه ببغداد خطب الناس فقال:

(إن أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب وأمر فأطاع - واغرورقت عيناه فقال : قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة ، ولقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً فعند الله احتسب أمير المؤمنين واستعين على خلافة المسلمين - .

أيها الناس ، أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم وطوى الأصر عنكم وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك ، والله لأفنين عمرى بين عقوبتكم والإحسان عليكم) .

يرى الممعن فى معانى هذه الخطبة شيئاً كثيراً من المنافع والمقاصد الخيرية :

أظهرت تأثره بالفجيعة ، وأبانت أن خلاله خلال حنو وانعطاف ، وأن ملكوت الخلافة لم ينسه حق الأبوة ، ورأينا غير ذلك فى غيره ممن لا تذكر نعمتهم فى جانبه ولا أسوأ من العقوق والعياذ بالله .

نقب على أحسن ما توصف به الرعية وطلب تحقيقه من الأمة والملة فقال : (وأسروا كما تعلنون) لأن أقبح ما تكون الأمة وفى صدرها دخل سواء كانت تصره لبعضها أو لأولياء أمورها .

طلب منهم خفض الجناح واقترنه بنشر المعدلة فيهم وطىّ الأصر عنهم ، ولا أجل من ذلك فى معانى الحكم بالعدل والملك بالحق .

(*) انظر : نهاية الأرب : ٢٢/١٠٨ - ١٢١ ، المعارف ٣٧٩ - ٣٨٠ ، مروج الذهب: ٢/٢٤٥ ، المختصر : ٢/ ١٠ ، الإمامة والسياسة : ٢/١٥١ ، الأنباء فى تاريخ الخلفاء ٧٢ - ٩٦ ، البدء والتاريخ : ٦/٩٥ - ٩٩ ، البداية والنهاية : ١٠/١٥١ - ١٥٦ ، تاريخ الخلفاء ٢٩٦ - ٣٠٥ .

حكم على نفسه بأن يفنى عمره بين الإحسان والعقوبة ، وكذلك النفوس الكاملة تتقلب رعاياها بين رحموتها وصبروتها لكيلا تكون « سكراً فتؤكل أو حنظلاً فترمى » :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى   مضر كوضع السيف فى موضع الندى

كأنما المنصور كان ينعى نفسه ، فقد أوصاه عند وداعه وصيةً من لا يؤمل اللقاء، فلم يدع فيها شيئاً من الخير يمكن الإحاطة به إلا تقدم فيه إليه وأوصاه بخصال جمّله بها واستخلف الله عليه .

تولى الخلافة مستأنساً بوصية والده هذه متدرباً خليقاً بالإمارة ، لأن الخليفة المنصور ريضه بما ولاه قبلها من الأعمال مذ شب وتأدب وجالس العلماء وبلغ مبلغ الكمال .

أمره على طبرستان وما والاها فباشر أعمالها حتى برهن على أهليته ، ثم عهد إليه بالخلافة بعد ذلك ، فكان العهد إليه عن خبرة وحقيقة نظر فى مصالح الأمة، وكأنَّ المنصور بتربيضه ولده وولى عهده على أمورها وأعمالها نظر لمصالح هذه الأمة فى مماته نظره لها فى حياته ، وحبذا الخلفاء .

روى المهدى الحديث عن أبيه وعن مبارك بن فضالة ، وحدث عنه يحيى بن حمزة وجعفر بن سليمان الضبعى وغيرهما . قال الذهبى : وما علمت فيه جرحاً ولا تعديلاً .

كان المهدى جواداً ممدوحاً محبباً إلى الرعية حسن الاعتقاد . قال له يوماً يعقوب وزيره فى أمر أراده : « هذا والله السرف » ، فقال المهدى : ويحك يا يعقوب إنما يحسن السرف بأهل الشرف ليعلم المكثر من المقل .

كان من أوائل فعله فى خلافته تتبع الزنادقة والقائلين بالتناسخ من أهل خراسان الملتفين حول راية المقنع ولوائه فحاربهم ، ثم أراد أن يكون دليله فى إذلالهم دليل بحث وتنقيب ، وحجته فى إفحامهم حجة برهان واستنباط لا حجة غلبة وصوله، فأمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على مسائلهم فى الزندقة والإلحاد ، وما زال بهم حتى أفناهم وطهر الأرض منهم .

وفى سنة تسع وخمسين ومائة بايع المهدى بولاية العهد لموسى الهادى ، ثم من بعده لهارون الرشيد ولديه .

وفى سنة (٦٠) حج بالناس وقسم مالاً عظيماً فى مصارف الخير ونقل خمسمائة من الأنصار إلى العراق جعلهم فى حرسه وأقطع لهم الأرزاق .

حمل إليه الثلج وهو فى مكة ، وهذا مما لم يتهيأ لخليفة قبله قط ، وما ذلك إلا من انتظام البريد وأمان الطريق وسلامة الوارد والمتردد وعدم وجود عائق أبداً .

نعم عمر الطريق إلى مكة وبنى به قصوراً أوسع من قصور المنصور « من القادسية إلى زبالة » ، وجدد الأميال وحفر الآبار ، وأصبحت الطريق آمنة صالحة إلى بيت الله الحرام ، ومقام نبيه عليه السلام ، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منها منهل ، وسير البريد من العراق للحجاز ، ومن اليمن إلى مكة إلى الحضرة ، وخصص له إبلاً وبغالاً لا تحصى ، وهو مما لم يتفق لغيره أيضاً .

أمر بترك المقاصير التى فى جوامع الإسلام وقصر المنابر ، وصيرها على مقدار منبر رسول الله ﷺ ، ووسع المسجد الحرام ، وأمر بالزيادة الكبرى فيه ، وأدخل فى ذلك دوراً كثيرة ، ولم يزل البناء فيه إلى وفاته .

ثم بدأ فى الفتوح ببلاد الروم ، فكثرت الفتوحات على يديه ونصره الله ، وزاد فى غنيمته :

فمنها : أنه فى سنة ثلاث وستين ومائة تجهز لغزو الروم ، وجمع الأجناد من خراسان وما يليها من الآفاق وصار مستصحباً ولده هارون ، وبعد أن عبر الفرات بعثه للغزو ، فحاصر البلاد وافتتحها وأثخن فى الزنادقة .

ثم سير ابنه هارون فى سنة خمس وستين ومائة لغزو الروم ، فأوغل فى بلادهم وهزمهم ، وجمع إليه أموالاً كثيرة ، وسار حتى بلغ القسطنطينية ، وكان على الروم يومئذ « غسطة » زوجة « أليوك » كافلة لابنها منه صغيراً ، فجرى الصلح على الفدية ، وأن تقام له الأدلاء والأسواق فى الطريق ، ونال قصده من ذلك .

كان عادلاً محباً للعدل ، فإذا جلس للمظالم قال : ادخلوا على القضاة ، فلو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى .

بلغ من تقواه ما حدث به « الحسن الوصيف » قال : أصابتنا ريح شديدة فى أيام المهدى حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر ، فخرجت أطلب المهدى فوجدته واضعاً خده على الأرض وهو يقول : (اللَّهُمَّ احفظ محمداً فى أمته ، اللَّهُمَّ لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم ، اللَّهُمَّ إن كنت أخذت هذا العالم بذنبى فهذه ناصيتى بين يديك) قال : فما لبثنا إلا يسيراً حتى انكشفت الريح وزال عنا ما كنا فيه .

كان سمحاً جميلاً . قال الربيع : رأيته يصلى فى بهو له فى ليلة مقمرة ، فما أدرى أهو أحسن أم البهو أم القمر أم ثيابه ، فقرأ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (١) قال : فأتم صلاته ، ثم التفت إلىّ وقالَ : يَا ربيع ، قلت : لبيك ، قال : موسى ، فقلت فى نفسى : من هو موسى ، أموسى ابنه ؟ أم موسى بن جعفر ؟ وكان محبوساً عندى ، فجعلت أفكر ثم غلب علىّ أنه موسى بن جعفر فأحضرته ، فقطع صلاته ، ثم قال له : يا موسى ، إنى قرأت هذه الآية (وقرأها) ، فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثق لى أنك لا تخرج علىَّ وتؤذى بخروجك جماعة المسلمين حتى أخليك ، فوثق له فخلاه .

ويحق للقارئ لهذا الخبر أن يحاكى الربيع فى مقاله ويجاريه فيقول : لا أدرى قراءته كلام الله بهذا الإمعان والتدبر أحسن أم العلم به فى صلة الرحم أم العفو عن المسيء أم مخافة الله !!!

كان عصره عصر خير وبركة ، من الزهاد : جمع إبراهيم بن أدهم وداود الطائى ، ومن الأعلام : الخليل بن أحمد الفرهودى صاحب العروض وسفيان الثورى وبشار بن برد أول شعراء المحدثين .

كان مثالاً للسماحة وقدوة فى مكارم الأخلاق ، قالوا : كان يصلى بالناس الصلوات الخمس بالمسجد الجامع بالبصرة لما قدمها ، فأقيمت الصلاة يوماً ، فقال أعرابى : لست على طهر وقد رغبت فى الصلاة خلفك ، فأمر الناس بانتظاره ودخل المحراب ، ووقف إلى أن قيل : جاء الرجل ، فكبر وصلى .

---

(١) سورة محمد ، الآية : ٢٢ .

ومن الخبر المأثور عنه فى حب النبى ﷺ : أنه أول من قرأ فى الخطبة : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ (١) الآية قال الأصمعى : سمعت المهدى على منبر البصرة يقول : إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته ، وقرأ الآية .

كان يتعسس بنفسه حال الأمة والملّة ، فاتفق له ليلة أنه سمع أعرابية تقول : (قومى مقترون ، نبت عنهم العيون فدحتهم الديون ، غصتهم السنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثرت عيالهم ، أبناء سبيل وأنضاء طريق وصية الله ووصية الرسول ﷺ ، فهل من آمر لى بخير كلأ الله فى سفره وخلفه فى أهله) فوصلها وأمر من يوصلها لحيها .

وأسند عن مهدى بن سابق قال : صاح رجل بالمهدى وهو فى موكبه وقال :

قل للخليفة حاتم لك خـائن ... فخف الإله وأعفنا من حـاتم

إن العفيف إذا استعان بخائن ... كان العفيف شريكه فى المآتم

فاستوقف كل عامل يدعى حاتماً حتى عرف له صاحب الخيانة وتقاضاه .

واعترضته امرأة فقالت : يا عصبة رسول الله ، انظروا فى حاجتى ، فقال : اقضوا حاجتها وصلوها بعشرة آلاف درهم ، فإنى ما سمعت أحداً خاطبنى بهذا.

ومن غرر أقواله قوله : (ما توسل إلى أحد بوسيلة هى أقرب من تذكرى يداً سلفت منى إليه أتبعها أختها وأحسن ربها ، فإن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل).

هذه الترجمة مثال تقاس عليه نتيجة حسن تربية أولياء العهد وترييضهم على العمل فى أيام سلفائهم ليمكن لهم أن يتقوا بنظرهم لهم ويتحقق منهم النظر فى مصالح الأمة لدينهم ودنياهم متى أصبحوا أئمة عليها ووجب على جميع الرعية طاعتهم .

إن ولى العهد إذا أصبح ليس بينه وبين تحقيق أمنيته إلا موت العاهد له كان ذلك شؤماً عليه وعلى الأمة ، وأى شؤم ، فإنه يبطئ بنفسه عن كثير من خصال الخير ولا يوجد له إحساس يدفعه لحب التعليم ولا يكلفه الوصول لما فيه مرضاة الأمة بخلاف ما إذا سلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين على نظر من

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٥٦ .

الخليفة والناس ، ودفع على الأمور ورأى المنشط منها والمكره ، وسلك فيها بالاستيعاب حتى يفهم المعنى الذى أصبح من أجله أمير المؤمنين ، كان ذلك من أجل دواعى ترقى نفسه فى مراقى الكمال ووقعت المصلحة فى اجتماع الناس عليه واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد الذى شأنه أهم عند الشارع من كل شأن لما فيه من انتفاء الريب .

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه ، ويسر لنا ارتباط القلوب واتفاق الأهواء ، واتحاد النفوس ، واجعل أشد ما نتواجد عليه إيثار مصلحة المسلمين على كل شىء فى كل شىء من أمر دنياهم وآخرتهم .

* * *

(الرشيد) (*)

هو هارون الرشيد وكنيته أبو جعفر (وكان يكنى أبا موسى) بن المهدى محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس .

تولى الخلافة بعهد من أبيه المهدى عند موت أخيه الهادى ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، هذه الليلة من أعجب الليالى ، تولى فيها الرشيد الخلافة ، وولد فيها له عبد الله المأمون ، ومات فيها أخوه الهادى ، وليس فى ليالى الزمن المعروفة ليلة تمخضت عن موت خليفة وقيام خليفة وولادة خليفة غيرها ، فإن كان ثم تفسير طابق معنى قول القائل :

الليالى من الزمان حبالى   مثقلات يلدن كل عجيبه

فهذه الليلة من تلك الليالى .

أسند الصولى عن يعقوب بن جعفر . قال : رأى الرشيد فى نومه النبى ﷺ فى سنة تسع وستين ، فقال له : إن هذا الأمر صائر إليك فاغز ، وحج ووسع على أهل الحرمين ، فقام غازياً أطراف الروم وغنم وانصرف فى شعبان فحج بالناس فى الموسم ، وفرق على أهل الحرمين مالاً كثيراً وصدق الله الرؤيا ، وتولى الخلافة فى السنة التى بعدها وفيها ولد له الأمين .

كانت ولادة الرشيد بالرى فى أواخر ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة ، وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام ، فأرضعت أم ابن يحيى الرشيد وأرضعت الخيزران الفضل بلبن الرشيد . وكان أبوه المهدى فى تلك الأيام وما بعدها أميراً على الرى وخراسان من قبل المنصور كما قدمنا فى ترجمتيهما .

هذا هو الخليفة الذى مثل معنى الخلافة ومقامها فى عدلها وحلمها وإنصافها

(*) انظر : التنبيه والأشراف ٣٤٥ - ٣٤٦ ، العقد الفريد : ١١٧/٥ - ١١٨ ، شذرات الذهب : ٢٦٧/٢ ، نهاية الأرب : ١٢٥/٢٢ - ١٦٣ ، المعارف ٣٨١ - ٣٨٣ ، المحبر ٣٨ - ٣٩ ، تاريخ خليفة بن خياط ٤٨٠ ، تاريخ الخلفاء ٣٠٧ - ٣٢٢ ، البداية والنهاية : ٢١٣/١ - ٢٢٢ .

وإقامة عماد دولتها وإظهار شأنها وحماية ناموسها وحاطها بأنواع الأسباب التى تدفع عنها المكاره ، هو الذى مثل البذخ والترف والمجد والشرف والأبهة والعز والعظمة والسؤدد والنعيم المقيم الذى جمع دواعى اللذائذ الدنيوية والفوائد الأخروية ، وهو الذى اجتمع له فى خلافته ما لم يجتمع لغيره وزراؤه البرامكة وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن أبى حفصة ونديمه العباس بن محمد عم أبيه وحاجبه الفضل أنبه الناس وأفطنهم وأعظمهم ، فهو كما قيل :

إن المكـارم والمعروف أودية ... أحله الله منها حيث تجتمع

كان أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ، وكان كثير الغزو والحج ، يغزو سنة ويحج سنة ، فإذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الطاهرة . قال الشاعر :

فمن يطـلب لقاءك أو يرده ... ففى الحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العدو على طمرّ ... وفى البلد المحرم فوق كـور

كان مفرداً فى تعظيم حرمات الإسلام والمبالغة فى احترام العلماء والوعاظ محباً للعلم وأهله ، مبغضاً الرياء فى الدين والمعارضة فى النص .

كان الرشيد أبيض طويلاً جميلاً مليحاً فصيحاً ، له النظر النافذ فى العلم والأدب ، كثير الصلاة يصلى كل يوم مائة ركعة لا يتركها إلا لعلة ، وله صدقات من صلب ماله تزيد عن ألف درهم فى كل يوم ، وكان له تواضع فى شرفه أشرف من الشرف ، فمن أحسنه (وما أحسن شىء كله حسن) ما حدث به أبو معاوية الضرير قال : أكلت مع الرشيد ثم صب على يدى الماء رجل لا أعرفه ، فقال الرشيد : تدرى من صب عليك ؟ قلت : لا ، قال : أنا ، إجلالاً للعلم ورعاية لأهله .

وقال القاضى الفاضل فى بعض رسائله عند الكلام على رحلة السلطان صلاح الدين لطلب العلم : (ما أعلم أن لملك رحلة قط فى طلب العلم إلا الرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على سيدنا مالك - رحمه الله - ثم رحل لسماعه أيضاً مقتدياً به هذا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الاسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف ، ولا يعلم غيرهما أحد) .

وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى « خزانة المصريين » .

كان مولعاً باحترام العلماء ، فمن فضائله فيه : إنه لما بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء فيه عن أهله وأمر الأعيان والأمراء أن يعزوه .

كان بكاء على نفسه يشفق من إسرافه وذنوبه سيما إذا وعظ ، ولم ير أغزر دمعاً منه عند الذكر ، ولم يذكر له النبى إلا قال : صلى الله على سيدى .

دخل عليه ابن السماك يوماً وكان يعظه فاستسقى الرشيد ، فأتى له بماء ، فقال له ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين ، لو منعت هذه الشربة بكم تشتريها؟ قال : بنصف ملكى ، قال : اشرب هنأك الله بها ، فلما شربها قال : أسألك لو منعت خروجها بماذا كنت تشترى خروجها ؟ قال : بملكى ، قال : إن ملكاً قيمته (كذا) و(كذا) لجدير أن لا ينافس فيه ، فبكى الرشيد .

وقال يوماً لشيبان : عظنى ، قال : لئن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف ، فقال الرشيد : فسر لى هذا ، قال : من يقول لك : إنك مسئول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول : أنتم أهل بيت مغفور لكم ، وأنتم قرابة نبيكم ﷺ .

كان كأنه جده المنصور هيبة وصلابة فى الملك وجبروتاً وشدة مع الحق ، كثير الكراهة للباطل متتبعاً للزنادقة طالباً لهم ، وكان القول بخلق القرآن شائعاً فى عهده ، فما يظفر بأحد من أهل هذه الآراء حتى يقتص منه أشد القصاص .

كان شديد الاقتفاء لأعمال جده متطلباً للعمل بآثاره ومحاكاته فى أعماله وصيانة سرير ملكه ، وحفظ أبهته وزيه ، فلم يختلف عنه فى شىء إلا فى البذل والنوال ، لأنه لم ير خليفة بذل ما بذله الرشيد فى العطايا من مال وخلع ، فكانت صلته تصل ما بين الإنسان وبين الغنى ، وتقطع ما بينه وبين الفقر والاحتياج .

ولى الخلافة بعد ما تنقل فى مهام أمورها ، فقد استعمله أبوه المهدى فى الأعمال وريضه عليها ، فجهزه مراراً للغزو بالصائفة والإيغال فى بلاد الروم . وفى سنة ثلاث وستين ومائة ولاه المغرب كله وأذربيجان وأرمينية ، وجعل كاتبه

ثابت بن موسى ، وعلى رسائله يحيى بن خالد ، فنشأ خير نشء ، وظهر بخير مظهر .

كانت فى غرضه أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلى الفرما (أى أن يفتح ترعة السويس) ، فشاوره وزيره يحيى وفكرا طويلاً ، فانكشف لهما تغول الروم فخافا من دخولهم بمراكبهم فى القلزم وقربهم من الأراضى المقدسة، فنزعا عن هذا الفكر .

هذه نتائج خواطر وزراء الخير الذين يدركون قوة حكومتهم ، فلا يتورطون فى أمور لا قبل لهم بها ولا يغررون بأنفسهم لأنهم يعلمون معنى المسئولية التى تحيط بمركزهم ، فلا يقدمون على شىء إلا ولهم منه مخرج ، ولو كان للناس وزير كيحيى لخفف من هذا البلاء النازل أو حده أو تلطف فلطف من قضائه المبرم وعاق امتداد الأيدى الأجنبية عن العبث فى هذه النواحى بدعوى الاستعمار الذى جاز حده البحار والقفار .

ازدهر عصره بين الأعصار بوجود كثير من العلماء الأعلام فيه ، كالإمام سيدنا مالك بن أنس ، والليث بن سعد ، والكسائى ، وأسد الكوفى ، ومحمد ابن الحسن من كبار أصحاب أبى حنيفة ، وصعصعة بن سلام عالم الأندلس ، وغيرهم ، وهذا أيضاً من سعة رزق خلافته وإرادة الله سبحانه وتعالى ، له الخير ببطانة الخير ، والفلاح والنجاح الذين يتأسى بهم فى كل صلاح .

نقل شيئاً كثيراً من عوائد الفرس منها الكرة والصولجان ، ورمى النشاب فى البرجاس والشطرنج ، وجعل لكل شىء قاعدة ومرتبة حتى المغنيين ، فإنه أول من جعل لهم مراتب وطبقات يعرفون بها .

كانت بغداد فى عصره نادرة الدنيا ونكتة المدائن ، فريدة فى حضارتها وعمارتها ، ترقت فيها أسباب المدنية لدرجة لم ير مثلها كما قدمنا ذلك (فى النبذة التاريخية) فأيامها أعياد ، ولياليها أعراس ، وسلطانه الممتد سياجه عليها قد عظم من قدرها ونبه من ذكرها ، وهو بما أسبغه عليها من ظله الظليل وما منحها من العدل والمساواة ، دعا الناس بلسان الأمن والأمان إلى المبادرة إليها بالمتاجر والعروض فتناهوا فى الطلب والإقدام على العمل بعلو الهمة ، وجلس

للناس فى منصة عدله وعمهم برحمته ، فشمل القوى والضعيف والعاجز والعليل وذوى الحاجات ومن لا وسيلة لهم ، فأزاح عن جميعهم العلل وأبطل الأهواء وحجز بتدبيره عنهم كل آفة تؤدى للتقاعس والتقاعد والدمار والخراب .

أما غزوه وفتحه ، وحجه ، وفديته ، فكثير :

منه : أنه فى سنة واحد وسبعين ومائة حارب الصحصح الخارجى بالجزيرة وقتله .

وفى سنة ثلاث وسبعين ومائة غزا الصائفة وحج بالناس وأحرم من بغداد .

وفى سنة أربع وسبعين ومائة حج بالناس وقسم مالاً كثيراً .

وفى سنة ست وسبعين ومائة عقد لابنه محمد ولاية العهد ولقبه « الأمين»(*)، وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين .

ثم فتح فى سنة ست وسبعين ومائة مدينة « دلسة » على يد الأمير عبد الرحمن ابن عبد الملك بن صالح العباسى .

وفى سنة واحد وثمانين ومائة غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح أرض الروم ، وبلغ أنقرة .

ثم دخلت سنة اثنين وثمانين ومائة وفيها زلقت قدم الرشيد بيد القضاء والقدر، وبايع لعبد الله ولده بولاية العهد بعد الأمين ، وولاه خراسان وما يتصل بها ، ولقبه « المأمون » وسلمه إلى جعفر بن يحيى (وهذا العمل منه يعد من أعجب العجب بعد ما جرب عواقبه فى نفسه ورأى ما صنعه أبوه وجده بعيسى ابن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد ، وبعد ما صنعه أخوه الهادى معه لخلعه من العهد وتولية ابنه جعفر ولو لم يعاجله الموت لفعل) ، ولكن نفذ قدر وضاع حذر .

(*) انظر : نهاية الأرب : ٢٢/ ١٦٤ - ١٨٨ ، المعارف ٣٨٤ - ٣٨٦ ، مروج الذهب: ٢/٣٠٧ ، المختصر فى أخبار البشر : ٢/ ٢٠ - ٢١ ، المحبر ٣٩ - ٤٠ ، الكامل : ٥/١٦٣ - ١٧١ ، العقد الفريد : ٥/١١٨ - ١١٩ ، تاريخ اليعقوبى : ٢/ ٤٣٣ - ٤٤٣ ، تاريخ مختصر الدول ١٣٢ - ١٣٤ .

ثم حج الرشيد بالناس بعدها فى سنة خمس وثمانين ومائة ، وسار إلى مكة من الأنبار ، وبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاث أعطية : عطاؤه ، وعطاء الأمين ، وعطاء المأمون .

ثم سار إلى مكة فأعطى أهلها أيضاً ، وولى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ، والمأمون همذان إلى آخر المشرق ، وبايع ابنه « القاسم » بولاية العهد بعد المأمون ولقبه « المؤتمن » ، وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم ، وكتب كتابين بالإشهاد وعلقهما فى الكعبة ، فقال الناس : قد ألقى بينهم شراً وحرباً ، وخافوا العاقبة وكان ما خافوه .

وفى سنة سبع وثمانين ومائة نقض ملك الروم الهدنة التى كانت بين المسلمين وبين الملكة « زينى » ملكة الروم ، فكتب للرشيد كتاباً يقول فيه :

(أما بعد : فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها أحمالاً لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بينى وبينك) ، فلما قرأ الرشيد كتابه كتب إليه : (قد قرأت كتابك والجواب ما ترى لا ما تسمع) ، وسار ليومه ولم يزل حتى نازله وفتح مدينة هرقل بالغزوة المشهورة ولم يتزحزح حتى بلغ مراده منه .

وفى هذه السنة كانت تمت للبرامكة مشاركتهم للرشيد فى سلطانه ، وعظم فى نظر الناس ما لهم من الآثار ، وبعد الصيت وكثر ما اختصوا به وعمروه من مراتب الدولة وخططها ، وما احتازوه عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، واقتصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم والممالك هدايا الملوك وتحف الأمراء واستجار بهم العانى والمعدم والمذنب فأجاروه فأهاجوا بذلك كامن الغيرة وسلطوا عليهم بأس الانتقام ومكنوا منهم جماعة الحساد والدهر حرب للمقام العالى ، ونعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال .

وقعت لهم النكبة المشهورة التى لهم فيها بمن قبلهم أسوة ولمن بعدهم عبرة ، كانت دليلاً جديداً على أن الدنيا دول والمال عارية ، نكبة أمسكت لسان المادح وقطعت لسان الحاسد ، وبكاها الولى والمولى والعدو والجاحد ، نكبة استراحت

بعدها الوراد من قطع الفدافد سعياً ، وأقسم الجود أن لا يحيى بعد يحيى ، « إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

ثم فادى الرشيد فى سنة تسع وثمانين ومائة ملك الروم حتى لم يبق فى الأسر مسلم ، وهو أول فداء كان لبنى العباس .

وفى سنة تسعين ومائة فتح « هرقلة » وبث جيوشه بأرض الروم ، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ، وافتتح يزيد بن مخلد « قلفونية » .

وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة سار الرشيد نحو خراسان للغزو فوصل طوس فتمرض بها ، ومات فى ثالث جمادى الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة - رحمه الله - وصلى عليه ابن صالح . مات على أشرف حال يرتجيه القائم على أمة شهيد الغربة شهيد الجهاد ، فارتفعت روحه الشريفة فى مراتب الشهداء تسبح فى ملكوت الله فى أعلى عليين ، ثم أخذ رجاء الخادم البرد والقضيب والخاتم ، وسار على البريد فى اثنى عشر يوماً من « مرو » حتى قدم بغداد فى نصف جمادى الآخرة ، ودفع ذلك للأمين :

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهـــا وكأنهـــم أحـــــلام

هذه سيرة هذا الخليفة الخامس من بنى العباس ، طالت ولم نستوف شطراً من فضائله ، والقصاص ومن لا بصيرة لهم من الكتاب ينسبون إليه أشياء فى اللهو واللذات المحظورة الله يعلم أنه برىء منها ، وأنى ذلك وهو من العلم والسذاجة واجتناب المذمومات فى دينه ودنياه والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب بمرتبة تشبه مراتب السلف وحاله فى اجتناب الخمر معلومة لجميع بطانته وأهل مائدته ، وكفى بتغيره على طبيبه بختيشوع دليلاً على ذلك .

وكيف يعقل أن الرشيد يواقع محرماً وقرناؤه وجلساؤه مثل الفضيل بن عياض وابن السماك والعمرى ، ومكاتبته سفيان الثورى وبكاؤه من مواعظهم ودعاؤه بمكة فى طوافه ، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها .

إن الرشيد رحمه الله أجل من أن يرتكب السرف والترف فى ملبسه وزينته وسائر متناولاته لقربه من خشونة البداوة وسذاجة الدين ، فالله يقتص له ، وللمكذوب عليهم من أمثاله من القصاص الذين دونوا ما دونوا عنهم فرية وكذباً وزوراً وبهتاناً إرضاء لجماعة العجزة الذين لا شغل لهم إلا أحاديث النميمة والغيبة وأكل لحم إخوانهم ، كأنما هم أعداء للعلم والدين والسلطان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

(المأمون) (*)

هو عبد الله أبو العباس بن الرشيد ، بويع له وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، ومات سنة ثمانى عشرة ومائتين وعمره (٤٩ سنة) ، واستقل بالأمر بعد قتل أخيه الأمين سنة (١٩٨) وهو بخراسان ، واكتنى بأبى جعفر . قال الصولى : وكانوا يحبون هذه الكنية لأنها كنية المنصور ، وكان لها فى نفوسهم جلالة وتفاؤل بطول عمر من كنى بها كالمنصور والرشيد .

ولما تأتى الملك للمأمون قال : هذا جسيم لولا أنه عديم ، وملك لولا أنه هلك ، وسرور لولا أنه غرور ، ويوم لو كان يوثق بما بعده .

سمع الحديث من أبيه وعباد بن العوام وأبى معاوية الضرير وغيرهم ، وأدبه اليزيدى ، وجمع من الفقهاء والأدباء حتى برع فى الفقه والعربية وأيام الناس ، وعنى بالفلسفة وعلوم الأوائل ، وهو الذى استخرج كتاب إقليدس وأمر بترجمته وتفصيله ، وهو الذى عقدت فى زمانه مجالس المناظرة ، خصص لها يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وترقت العلوم فى عهده وتفشت بين العرب ، وهو أول من قاس الدرجة الأرضية وعرف مقدارها ، وأخذ من كل العلوم بقسط وضرب فيها بسهم .

وأخرج محمد بن عباد أنه لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء إلا عثمان بن عفان والمأمون (ولكن فى هذا نظر) .

اشتغل بالحديث حتى قالوا : إن الرشيد لما حج معه طلب المحدثين ، فبعث إليهم بالأمين والمأمون فحدثوهما مائة حديث ، ثم قال المأمون : أيؤذن لى أن أعيدها من حفظى ؟ قيل : نعم فأعادها ، وهو أول من استخرج كتب الفلاسفة

(*) انظر : مآثر الإنافة : ٢٠٨/١ - ٢١٧ ، الكامل : ٢٢٧/٥ - ٢٣١ ، العقد الفريد: ١١٩/٥ - ١٢٠ ، تجارب الأمم : ٤٦٧/٦ - ٤٧٠ ، تتمة المختصر : ٣١٧/١ - ٣٣١ ، تاريخ الطبرى : ٦٤٦/٨ - ٦٦٦ ، تاريخ الخلفاء ٣٣١ - ٣٦٠ ، تاريخ بغداد : ٤٢/٢ ، البداية والنهاية : ٢٧٤/١٠ - ٢٨٠ ، البدء والتاريخ : ١١٢/٦ - ١١٣ .

واليونان من جزيرة قبرص ، وهو الذى قال : (لا نزهة فى الدنيا ألذ من النظر فى عقول الرجال) .

كان المأمون أفضل رجال بنى العباس حزماً وعزماً وحلماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤدداً وسماحة ، وله فضائل وسيرة طويلة كلها محاسن .

كان أماراً بالعدل ، فقيه النفس ، معدوداً من كبار العلماء ، اجتهد فى رأب الصدوع ، وسد الفتوق ، وإصلاح ما تشعث من بنيان الدولة ، ولكن الخلاف بينه وبين الأمين أخيه اشتعلت نيرانه وأذكيت تنوره بأيدى بطانة السوء بالسعى والإغراء وزيادة الوحشة إبقاء على أنفسهم وحياتهم الشخصية ، كالفضل بن الربيع ، وعيسى بن ماهان ، والسندى ، وغيرهم ، أفسدوا دم الإخوة حتى رضى الأمين بخلع أخيه المأمون ، وتغيظ المأمون حتى استحل قتل أخيه الأمين ، وكل هذا سببه هذه البطانة التى ما زالت تصغر للأمين من أمر أخيه وتزين له خلعه حتى رجع إلى رأيهم وهم يكذبونه ويغشونه ولا يصدقونه ، وهكذا بطانة السوء فى كل وقت وزمان ليس لها شغل إلا فساد ذات البين وتغيير قلب التابع والمتبوع خدمة لمصالحهم الشخصية .

استدعت هذه المبادئ التى زرعت بذورها بيد الأعداء أن لا تصفو الأيام للمأمون كما يحب ويختار لكثرة الخارجين عليه كابن طباطبا العلوى بالكوفة الذى سالت الدماء فى فتنته أنهاراً ، وإبراهيم بن موسى باليمن ، وثوار بغداد الذين اشتد أذى فساقهم على الناس حتى قطعوا الطريق وأخذوا النساء والصبيان علانية كأنَّ الأمين فتح للناس باب الخلاف ونقض العهد ، وكأنّ المأمون جرأ الناس على خلعه بخلع أخيه وقتله وعلمهم نكث العهد والبيعة ، فكان ذلك سبباً لكثرة خروج الثوار عليه ، كأنّ لله فى ذلك حكمة عجيبة وسراً فى خليقته من يظلم يظلم ، حتى لا ينتقض متبوع على تابع ولا تابع على متبوع حفظاً للعهد ورعاية للبيعة واستكمالاً لأسلوب نظام الحكومة التى منزلة القائم بها « خليفة الله فى أرضه » .

رأى المأمون كثرة الثوار عليه وخروج الكثير بدعوى الخلافة ، وهم من آل البيت ، فعمد إلى على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر ، وجعل فيه ولاية عن المسلمين ، فكان كما قال الشاعر : (كلما داويت جرحاً سال جرح) ،

نبض فى بنى العباس عرق الخلاف ، فصعب عليهم الأمر وخلعوا المأمون ، ولولا اتفاق موت على بن موسى الرضى لازدادت هذه الفتن واشتد أمرها ، وكل هذا نتيجة وجود الدخلاء من غير المِلّة والأمة الذين لا يعنيهم إلا شؤونهم الشخصية فى كل وقت .

يعجب الإنسان من شأن الخلافة العباسية وبدأ انحطاطها فى عهد أعظم خلفائها « المأمون » الذى كان فى طاقته وقدرته لعلمه وسعة اطلاعه أن يجمع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويمنع حبلهم من الاضطراب وأطرافهم من الانتقاض ، وأن يتغلب بحزمه وعزمه على كل هرج وفتنة وتنازع ، ولكنها آية من آيات الله سبحانه وتعالى ينذر الناس بها ليعلموا قوة الدخلاء فى الفساد وفى تقويض أمر المسلمين ومنع الساسة من تأييد سلطانهم من شدة الفتنة التى يدخلونها عليهم .

كان المأمون لعلو همته يحب الوقوف على أحوال رعاياه بنفسه ، فكان كثير التنقل من إقليم إلى آخر ، فجال فى بلاد الشام وتفرج على آثارها ، ودخل مصر ورأى عجائب مبانيها (وهو الذى فتح الفتحة الموجودة الآن بالهرم الأكبر).

انتقل المأمون إلى بغداد فانقطعت بقدومه الفتن ، وفر أصحاب الفساد ، وشرع المأمون فى فعل ما يؤثر عنه من جميل الفعال والعناية بالعلوم والمعارف ومعاشرة العلماء والأدباء ، ثم أخذ فى غزو بلاد الروم والثغور وغنم فيها وفتحها سار سنة اثنتى عشرة ومائتين أسد بن الفرات قاضى القيروان ، وهو من أصحاب مالك وهو مصنف « الأسدية » فى مذهبه بجيش فى البحر قاصداً جزيرة « صقلية » ، فلما وصلوها ملكوا كثيراً من سواحلها واستولوا على مدينة « سرقوسة » ، وافتتحوا عمراناً كثيرة حولها ، وفى هذه الحادثة ظهرت شدة المسلمين وقوتهم ، فإنه فى أثناء ذلك وصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير ، وقد حل بالمسلمين وباء شديد ومات أميرهم ، فرأوا أن يسيروا بمراكبهم فوقف لهم الروم على باب المرسى ، فلما تضايقوا جمعوا أمرهم وأحرقوا المراكب ، وعادوا للبلاد فحاصروها واستلموا حصنها وحصناً آخر اسمه « جرجنت » ومدينة « قصريانة »، ثم استمرت الغزوات ووصلت مراكب كثيرة من أفريقيا فيها المدد للمسلمين

وساروا إلى ثغر « باليرم » ، ثم ساروا إلى جبل النار والحصون التى فى تلك الناحية ، وهم فى كل ذلك غانمون .

وحج المأمون بالناس سنين عديدة .

ثم دخلت سنة خمسة عشر ومائتين ، فسار المأمون إلى بلاد الروم من طريق أنطاكية وافتتح حصن « قرة » عنوة ، ونحواً من ثلاثين حصناً أخرى .

وكان المأمون كريماً ينفق إنفاق من لا يخاف الفقر ، وحسبك أنه لما ابتنى «بوران » كانت عطياته رقاعاً فيها أسماء ضياع ، فكل من سقطت فى يده ورقة أخذ الضيعة المكتوب اسمها فيها .

كان غاية فى كل علم : أخرج محمد بن أبى حفص الأنماطى قال : تغدينا مع المأمون مرة ، فوضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون ، وكلما وضع لون قال : هذا نافع لكذا ، ضار لكذا ، من كان منكم صاحب دم فليجتنب هذا ، ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا ، وهكذا حتى أتى على فوائد جميع أنواع الطعام ومضارها بالنسبة لأصحاب الأمزجة على اختلاف أنواعها .

ومن أغرب ما يؤثر عنه فى الذكاء المفرط أن امرأة شكت إليه فقالت : يا أمير المؤمنين ، مات أخى فخلف ستمائة دينار ، فحكم لى القاضى بدينار واحد ، فقال لها المأمون : هذا نصيبك ، قالت : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال الرجل خلف ابنتين ووالدة وزوجة واثنى عشر أخاً ، قالت : نعم ، قال : فللبنتين الثلثان أربعمائة ، وللوالدة السدس مائة وللزوجة الثمن ، خمسة وسبعون، ولكل أخ ديناران ولك دينار .

كان مع جالينوس فى معرفة النجوم ، ومع هرمز فى الحساب ، ومع علىّ بن أبى طالب فى الفقه ، فكان يفضل الناس بعقله وكماله ، ويسود عليهم بأدبه وحسن مجاملته ، أخرج الخطيب عن يحيى بن أكثم ، قال : بت عند المأمون ليلة فأخذه سعال ، فأخذ يسد فاه بكم قميصه حتى لا أنتبه ، وكان فيه رفق بخدمه وخاصته . قال عبد السلام بن صالح : بت عند المأمون ليلة ، فنام القيم الذى يصلح السراج فطفئ فقام المأمون وأصلحه ، وقال الصولى : كنا فى السفر مع المأمون فكان يتفقدنا فى الليل ويغطينا .

من كلامه : ما أقبح اللجاجة بالسلطان والضجر من القضاة ، والسخافة بالفقهاء ، والبخل بالأغنياء ، والمزاح بالشيوخ ، والكسل بالشباب ، والجبن بالمقاتل ، وكان يحب لعب الشطرنج ويقول : إنه يشحذ الذهن .

وكان يقول : ما فتق عليّ فى الخلافة فتق إلا وجدت سببه جور العمال ، «ولقد صدق المأمون ، فإن العمال أيدى الملك وآذانه الذين بهم تدار الأمور فى الجهات القاصية البعيدة ، وتسمع بهم الشكوى ، فإن لم يكونوا متفقين على تقوى الله عاملين بأحسن السير غير غافلين عن أمر الرعية شيئاً نزلت بساحتهم المفاسد وتجردت عليهم الأعداء ، وذهبوا وذهبت الجهات العاملين عليها من قبضة الحكومة وتولى أمرها غيرهم وفى السودان المصرى عبرة لمعتبر ، فضلاً عن الجزر والأماكن والنواحى والبلاد التى كانت للإسلام ، وضاعت بهذا السبب) .

ومن حكمه قوله : الناس ثلاثة : غذاء لا بد منه ، ودواء يحتاج إليه فى حال المرض ، وداء مكروه على كل حال .

وله الخطب البليغة والفقر الغريبة ، ومن ذلك : أعيت الحيلة فى الأمر إذا أقبل أن يدبر وإذا أدبر أن يقبل ، وكان يقول : معاوية بعمره ، وعبد الملك بن مروان بجحجاحه وأنا بنفسى ، وكان كما قال عنه الرشيد : فيه حزم المنصور ، ونسك المهدى ، وعزة الهادى .

ثم دخلت سنة ثمانية عشر ومائتين ، فمرض فيها المأمون لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة بعلة الحمى ، فأمر أن يكتب إلى البلاد بالوصية والبيعة لأخيه المعتصم ، ثم أوصاه وصية لم يفلت منها شيئاً من وجوه الخير ، فمن بعض ما جاء فيها : (يا أبا إسحاق - كنية المعتصم - ادن منى واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك ، واعمل فى الخلافة ، إذ طوقكها الله عمل المريد له الخائف من عقابه وعذابه) ، ومنها : (خذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم فى شيء وانصف بعضهم من بعض ، وتأن بهم ولا تعجل) ، ومنها : (يا أبا إسحاق ، عهد الله وميثاقه وذمة رسوله لتقومن بحق الله فى عباده ولتؤثرن طاعته على معصيته ، اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ، وهى طويلة ، ثم مات بالبذندون من أرض الروم ، ونقل إلى طرسوس فدفن بها .

قال الثعالبى : ولا يعرف أب وابن من الخلفاء أبعد قبراً من الرشيد والمأمون ذاك « بطوس »(١) ، وهذا « بطرسوس »(٢) .

راعى المأمون مصلحة السلطان مراعاة من يريد أن يستقيم له الملك مع الاستطالة ونظر للمصالح العامة نظر السائس الذى يريد أن يحمل كل رعيته على الاجتماع على الرضى بأحكامه من مسلم وكافر حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، ويجعل المعاند لها مقراً ومعترفاً بأن قوانينها مجتمعة من الأحكام الشرعية والآداب الخلقية والقوانين الاجتماعية الطبيعية بمراعاة ما يلزم من أصول الشوكة والسلطان الملازمين لأحكام الشرع الشريف ، فهى أرقى من حكم الحكماء وأدب الأدباء ووصفيات من فاق ممن فات من أصحاب القوانين والدساتير ، ولذلك كان من أكبر همه انتقاء الرجال الذين استنابهم عنه فى أعماله كلها .

حاشا لله أن نترك خبر هذه الخصلة الشريفة يمر على الأسماع من غير حكاية مفيدة ، وشاردة مثبوتة ، تنبئ عن فضيلة الوالى والمولى عليه بعد أن يسر الله لنا الكتاب الذى كتبه طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر فإنه كتاب جمع الوصية بجميع ما يحتاج إليه العامل فى عمله ، بل السلطان فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة ، وهذا نص الكتاب :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(أما بعد : فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عَزَّ وجَلَّ ومزايلة سخطه ، واحفظ رعيتك فى الليل والنهار ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله عَزَّ وجَلَّ وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه .

فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الرأفة عليك بما استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل فيهم ، والقيام بحقه وحدوده عليهم ، والذب عنه ، والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقن لدمائهم ، والأمن لسربهم وإدخال الراحة

---

(١) طوس : بلدة بإقليم خراسان . (٢) طرسوس : بلدة فى آسيا الصغرى .

عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه ، وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ، ولا يشغلك عنه شاغل ، وأنه رأس أمرك وملاك شأنك ، وأول ما يوقفك الله عليه .

وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعلك: المواظبة على ما فرض الله عَزَّ وجَلَّ عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عَزَّ وجَلَّ فيها ، ورتل فى قراءتك ، وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصرف فيه رأيك ونيتك ، واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وادأب عليها فإنها كما قال الله عَزَّ وجَلَّ تنهى عن الفحشاء والمنكر .

ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده .

وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عَزَّ وجلَّ وتقواه ، وبلزوم ما أنزل الله عَزَّ وجَلَّ فى كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله ﷺ ، ثم قم فيه بالحق لله عَزَّ وجلَّ ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد .

وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عَزَّ وجَلَّ والعاملين به ، فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عَزَّ وجَلَّ ، فإنه الدليل على الخير كله والقائد إليه والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ، ومع توفيق الله عَزَّ وجَلَّ يزداد المرء معرفة وإجلالاً له ودركاً للدرجات العلى فى المعاد مع ما فى ظهوره للناس من التوفير لأمرك والهيبة لسلطانك والأنسة بك والثقة بعدلك .

وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها ، فليس شىء أبين نفعاً ولا أخص أمناً ولا أجمع فضلاً منه ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد ، وكذا فى دنياك كلها .

ولا تقصر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم

الرشد ، والإعانة والاستكثار من البر والسعى له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله فى دار كرامته .

أما تعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب ، وأنك لن تحوط نفسك من قائل ، ولا تنصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزيد مقدرتك ويصلح عامتك وخاصتك ، وأحسن ظنك بالله عَزَّ وَجَلَّ تستقيم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدم به النعمة عليك .

ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ، فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم إثم ، ثم فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم يعينك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم ، ولا تتخذن عدو الله الشيطان فى أمرك معمداً ، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك ، ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينغص لذاذة عيشك ، واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة ، وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة فى الأمور كلها ، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة ، والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء وحياطة الرعية والنظر فى حوائجهم ، وحمل مؤوناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك ، فإنه أقوم للدين وأحيا للسُّنَّة .

وأخلص نيتك فى جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ومجزى بما أحسن ومؤاخذ بما أساء ، فإن الله عَزَّ وجلَّ جعل الدنيا حرزاً وعزاً ورفع من اتبعه وعززه .

واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى ، وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتتم لك مروءتك .

وإذا عاهدت عهداً فأوف به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها، واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول

الكذب والزور ، وابغض أهل النميمة ، فإن أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها، لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم له أمر .

وأحبب أهل الصلاح والصدق وأعن الأشراف بالحق ، وأعن الضعفاء وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة .

واجتنب سوء الأهواء والجور واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وانعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى .

واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوقار وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله .

وإياك أن تقول أنا مسلم أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع إلى نقص الرأى وقلة اليقين لله عَزَّ وجَلَّ ، واخلص لله وحده النية فيه واليقين .

واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم فى الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه واستطالوا بما أعطاهم الله عَزَّ وجلَّ من فضله .

ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تذخر وتكنز البر والتقوى واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم والإغاثة لملهوفهم .

واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت فى الخزائن لا تنمو ، وإذا كانت فى صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم ، وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت به العامة ، وترتبت به الولاية وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ووفر منة على أولياء أمير

المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ، فإنك إذا فعلت قرت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساس لطاعتك .

وطب نفساً بكل ما أردت واجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب ، وليعظم حقك فيه ، وإنما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل الله وفى سبيل حقه ، واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة، فتتهاون بما يحق عليك ، فإن التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار .

وليكن عملك لله عَزَّ وجَلَّ وفيه وارج الثواب ، فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله .

واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً ، فإن الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين ، ولا تحقرن ذنباً ولا تمالئن حاسداً ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ، ولا تداهنن عدواً ولا تصدقن نماماً ولا تأمنن عدواً ولا توالين فاسقاً ولا تتبعن غاوياً ، ولا تحمدن مرائياً ولا تحقرن إنساناً ولا تردن سائلاً فقيراً ولا تحسنن باطلاً ولا تلاحظن مضحكاً ولا تخالفن وعداً ، ولا تذهبن فخراً ولا تظهرن غضباً ولا تباينن رجاء ، ولا تمشين مرحاً ، ولا تذكين سفيهاً ، ولا تفرطن فى طلب الآخرة ، ولا ترفع للنمام عيناً ، ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا .

وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرفه والبخل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من نفعهم .

وليس شىء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلاً، فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم.

ووال من صفا لك من أوليائك بالاتصال إليهم ، وحسن العطية لهم ،

واجتنب الشح ، واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه ، وإن العاصى بمنزلة الحرى ، وهو قول الله عَزَّ وجَلَّ ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ فسهل طريق الجود بالحق .

واجعل للمسلمين كلهم فى بيتك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد ، فأعده لنفسك خلقاً ، وارض به عملاً ومذهباً ، وتفقد الجند فى دواوينهم ومكاتيبهم ، وادر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم فى معاشهم يذهب الله عَزَّ وجَلَّ بذلك فاقتهم فيقوى لك أمرهم ، وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً .

وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة فى عدله وعطيته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته ، فذلك مكروه أحد البابين باستشعار فضله الباب الآخر ولزوم العمل به تلق إن شاء الله تعالى به نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً .

واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى يعدل عليه أحوال الناس فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ، ويقيم الدين ويجرى السنن والشرائع فى مجاريها .

واشتد فى أمر الله عَزَّ وجَلَّ ، وتورع عن النطق ، وامض لإقامة الحدود ، واقلل العجلة ، وابعد عن الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه فى صحتك ، واسدد فى منطقك ، وانصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وابلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم ، وتثبت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك ، وارفق بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك الدماء ، فإن الدماء من الله عَزَّ وجَلَّ بمكان عظيم انتهاكاً لها بغير حقها .

وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ولأهله توسعة ومنعة ، ولعدوه كبتاً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاديهم ذلاً

وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ، ولا تدفعن شيئاً منه عن شريف لشرفه ، ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا لأحد من خاصتك ولا حاشيتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلف أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم على أمر الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ، والزم إرضاء العامة .

واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً ، وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم ، فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ، ونفذه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم ، واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم فى الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت ، وأسند إليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحدوثة فى عملك ، واستجررت به المحبة من رعيتك ، وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة ناحيتك ، وظهر الخصب فى كورك وكثر خراجك وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة فتنافس فيها ، ولا تقدم عليها شيئاً تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى .

واجعل فى كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك ، ويكتب إليك سيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معايناً لأموره كلها ، وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فامضه ، وإلا فتوقف فيه ، وراجع أهل البصر والعلم به ، ثم خذ فيه عدته فإنه ربما نظر الرجل فى أمره ، وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك وأعجبه ، فإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ، ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعد عون الله عَزَّ وجَلَّ بالقوة ، وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت .

واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه ، وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وتستيقن أمر سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم ، وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم ، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسافراً ، وافرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أخفى مسألة وكل بأمثاله أهل الصلاح فى رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى فى العطف عليهم والصلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة ، واجر للأمراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجرائد على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم وقواماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم واسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف فى بيت المال .

واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم لم تبرمهم ، وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ، ويشغل ذكره وفكره منها ما ينال به مؤونة ومشقة وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقرى ما يقربه إلى الله تعالى ويلتمس رحمته ، وأكثر الإذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن حراسك ، واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم فى المسألة والنطق ، واعطف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس والتماس للضيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى .

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ، ومن مضى قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم فى أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وبإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ، ودعا إلى سخط الله عَزَّ وجَلَّ ، واعرف ما يجمع

عمالك من الأموال ما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأخلاق ومقالتها ، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى ستر ، وإعلامك بما فيك من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك ، وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك ، فوقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتاً يدخل فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمور الدولة ورعيتك ، ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرر النظر فيه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحق والحزم فامضه ، واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى المسألة عنه والتثبت ، ولا تمنن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور المسلمين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك ، وتفهم كتابى إليك ، وامعن النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره ، فإن الله عَزَّ وجَلَّ مع الصلاح وأهله، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عَزَّ وجَلَّ رضا ولدينه نظاماً ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللملة والذمة عدلاً وصلاحاً ، وأنا أسأل الله عَزَّ وجَلَّ أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام) .

إذا افتخرت بالأبناء الآباء وازدهت المنابر بالخلفاء ، فالمأمون سيد النجباء ورئيس الحكماء ، وزين العلم والعلماء ، ولكن انشقت العائلة الحاكمة على نفسها وتولت هذا الشقاق يد الأعداء ، فما لبثت هذه الحالة أن استعصى علاجها على الحكماء والأمراء والقادة ، وفتح باب للشر كان مغلقاً ، وكل هذه الحوادث ضربها الله مثلاً للعظة والاعتبار ليأخذ كل قائم منها بنصيب ، ويضرب فيها بسهم ويتقى الله فى نفسه وفى رعيته ، ويجعل هذه الحوادث بمنزلة المدارس والواعظ له ليقول الإنسان عنها على سبيل التعزية : (إن كانت أساءت قوماً فلقد انتفع بها قوم آخرون) ، فحال الكثير من هذه الحال قريب والعاقل من اعتبر بغيره وقاس يومه على ماضيه ، ونظر إلى الدنيا وقرأ عظات الدهر فى صفحات أيامه ، فإنها الجريدة الباقية على ممر الأزمان التى لا تمحو سطورها يد الحدثان ولا يبليها مر الجديدان .

* * *

(المعتصم بالله) (*)

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد ، ولد سنة ثمان وسبعين ، كان ذا شجاعة وقوة وهمة ، وكان يقال له « المثمن » ، لأنه ثامن الخلفاء من بنى العباس ، ثامن ولد للعباس ، ثامن أولاد الرشيد ، وملك سنة ثمان عشرة ، واستمر فى ملكه ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وعاش ثمانياً وأربعين سنة ، وفتح ثمانية فتوح ، وأسر ثمانية ملوك ، وخلف ثمانية أولاد وثمانية إناث .

كانت قلوب الجنود أشربت الخلاف بما شهدوه من الوقائع بين الأمين والمأمون أزمان كانوا يساقون للعصيان لقضاء وطر النفوس الشريرة الخارجة على القائم بالخلافة ، فتأصلت فى النفوس حاجات ، وفى الطباع خصال لا ينبغى أن تلامس قلب الجنود المطلوب منهم الطاعة والانقياد لأميرهم .

بويع للمعتصم فتشعب الجند عليه ونادوا باسم العباس بن المأمون ، وأخذوا يطرقون الباب الذى دلهم عليه أمراؤهم من قبل ، فأرسل المعتصم إلى العباس وأحضره فبايعه ، ثم خرج العباس إلى الجند وقال لهم : قد بايعت عمى فسكتوا وانصرف المعتصم إلى بغداد ومعه العباس بن المأمون .

قال ابن المقفع : (إن الذى يصول على أعدائه بجيش لا يعلم دواخل صدورهم يكون مثله كمثل راكب الأسد : الناس تراه فتوجل منه ، وراكب الأسد أشد وجلاً) لذلك اضطر المعتصم أن يستخدم نحواً من خمسين ألفاً من التركمان مخافة أن توقع به الجنود ، واتخذ منهم لنفسه حراساً وولاهم محافظة الثغور والحدود ، فكانوا يزدادون يوماً عن يوم حتى كانت القوة بأيديهم فى عهد الخلفاء من بعده ، كما ستقف عليه إن شاء الله .

(*) انظر : العقد الفريد : ٥/ ١٢٠ - ١٢١ ، تجارب الأمم : ٦/ ٤٧٠ - ٥٢٧ ، تتمة المختصر : ١/ ٣٣١ - ٣٣٤ ، تاريخ اليعقوبى : ٢/ ٤٧٩ - ٤٨٠ ، تاريخ مختصر الدول ١٣٨ - ١٤١ ، تاريخ الطبرى : ٩/ ١١٨ - ١٢٣ ، تاريخ الخلفاء ٣٦٠ - ٣٦٧ ، المحبر ٤٢ ، نهاية الأرب : ٢٢/ ٢٤٢ - ٢٦٢ ، المعارف ٣٩٢ .

من أجل هذا حكم جماعة من المؤرخين بأن الخلافة العباسية انتهت بالمعتصم.

إذاً كان حكم المؤرخين على الدولة العباسية بالانتهاء كان لمجرد استخدامها جنداً غير العرب ، فبماذا نحكم على أمة من المسلمين رضخت لغيرهم وتمثلت بهم وهم يخالفونها فى كل مذهب ، وزادت بها السماحة حتى أصبحت تعتقد أن التشبه بهم فلاح : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

كان المعتصم طيب الأخلاق سديد الرأى قوياً ذا نجدة وهمة . يروى عنه : أنه بلغه أن نيوفيل ملك الروم خرج وأغار على بلاد الإسلام ، وأن امرأة هاشمية صاحت وهى فى أيدى جنده : (وامعتصماه !) ، فأجابها وهو جالس على سرير ملكه : (لبيك لبيك !!) ، وقام من ساعته ناهضاً وجمع من وقته جيشاً لم يماثله فيه أحد عدةً وعدداً .

وأوقف ما يملكه من الضياع ثلثاً لولده وثلثاً لله تعالى وثلثاً لمواليه ، وقصد مدينة « عمورية » وهى أشرف لدى الروم من القسطنطينية ، ولم يتعرض لها أحد منذ كان الإسلام ، فوصلها وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد .

استولى المسلمون على المدينة المذكورة ، ومنحهم الله النصر العظيم ، وأراد المعتصم المسير بعد هذا النصر إلى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة فى فتحها براً وبحراً ، فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه ، وذلك أن العباس ابن المأمون اجتمع عليه بعض أناس وأغروه وبايعوه ، وأنه كاتب طاغية الروم ، فأعجل المعتصم فى مسيره حتى يدفع عنه هذه الفتنة الداخلية ، وهكذا أهل السوء تنتهز مثل هذه الأوقات التى يتفرغ فيها القائم لعمل عظيم ، وتقف أمامه بالفتن والمفاسد وتسد طريق سعادتها الدنيوية والأخروية ، فتتخالف فى موضع الاتفاق وتتقاتل فى ساعة التناصر وتتناهب فى أوقات المناصفة ، وتدعوها خلال السوء لأن تستعد للوثبة عند عدم الحاجة إليها ، وهذه الطائفة حائل مانع دون كل الفوائد والرغبات تجنى على نفسها ودينها وملتها جناية لا يغفرها لها رب الدين وخالق العالمين .

---

(١) سورة ق ، الآية : ٣٧ .

استكثر من الجند حتى ضاقت بهم بغداد فجدد بناء مدينة (سر من رأى) وتحول إليها وخرجت فى زمنه جماعة من الثوار وأصحاب الأفوال والمدعيات ، فمكنه الله من رقابهم، ولم يجتمع لخليفة ما اجتمع للمعتصم من الظفر والنصر.

أسر ملك أذربيجان ، وملك طبارستان ، وملك أستسيان ، وملك أشباصح ، وملك فرغان ، وملك تخارستان ، وملك الصفة ، وملك كابل ، وبلغ ما أراد وزاد عليه ، بحيث لو كانت هذه الهمة صادفت صفاء من الوقت وحفاظاً من النظام وروحاً من الطاعة وولعاً وعشقاً من الأمة فى تأييد الخلافة ، ولم تكن الأمور معرضة للخطر واستنباط ضروب الخروج على القائم لقضاء حاجة فى النفس لكانت هذه المدة من أكبر وسائل السعادة للأمة الإسلامية .

وقد أسهب جماعة المؤرخين فى وصفه وسعة أخلاقه وكريم عشرته ، وأنه لم يكن أسمح منه بالنفقة فى وقت الحرب ، وروى عنه أنه تصدق بمائة مليون درهم، ومن مكارم أخلاقه أن انقطعت عنه أصحابه فى يوم مطير ، فبينما هو يسير إذ رأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك ، وقد زلق الحمار وسقط ، والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيعينه ، فنزل المعتصم عن دابته وخلص الحمار عن الوحل ورفع عليه حمله وانتظر أصحابه ، ووكل منهم به من يسير معه .

قال إسحاق بن إبراهيم : سألنى المعتصم فقال : نظرت إلى أخى المأمون ، وقد اصطنع أربعة فأفلحوا واصطنعت أربعة ، فلم يفلح أحد منهم .

فقلت : أجيب على أمان من غضبك ، قال : نعم ، قلت له : يا أمير المؤمنين، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً ، فلم تنجب إذ لا أصول لها ، فقال : يا إسحاق ، لمقاساة ما مر بى طول هذه المدة أيسر علىّ من هذا الجواب .

إن عدم التخير فى انتقاء حاشية الخلافة التى تشرف على عموم الأمة ينقلب بها الحال فى كل وقت إلى أشأم ما يكون لأنهم لقربهم من الملك يحلون بجهلهم القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون ، والحرب موضع السلام ، ويصبح الاجتماع البشرى بسببهم معرضاً للهلكة ، لأن هذه الطائفة أقرب الناس إلى الملك وهى التى تمثل طباعه وأغراضه ، ولا ينبغى أن يكون فى طباعهم تقصير عن الكمال الواجب لهم .

كان المعتصم يحب العمارة ويقول : إن فيها أموراً محمودة ، فأولها عمران الأرض التى تحيا بها العلم ، وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال وتعيش الأنعام وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ويتسع المعاش ، ولذلك كان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاء بعد سنة بأحد عشر درهماً ، فلا تؤامرنى فيه ، ولذلك كثر فى أيامه العمران واختطت الخطط ، واقتطعت القطائع والشوارع والدروب ، وأفرد أهل كل صنعة بسوق وبنى الناس وارتفع البنيان ، وشيدت الدور والقصور وسائر ما ينتفع به الناس .

ثم اختاره الله سبحانه وتعالى للدار الآخرة ، فقضى فى قصره المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائتين وقال عندما احتضر : (ذهبت الحيلة فليس لى حيلة) .

وكان للمعتصم كلمات فصيحة وشعر لا بأس به وسيرته هذه إذا لوحظ فيها ما طرأ على مصالح البشر من الفساد ، وما قذفت به الأمة الإسلامية نفسها فى مهاوى الشر من الطيش والنقص تكون خير نذير لما فيها من المنفعة وإشعار القلوب بلزوم الارتباط والاتحاد والتغلب على الشهوات التى تذهب حرمتها وتهدم بناءها وتفقد ما قصد بوضعها .

اللهم قنا شر نزغات الأهواء ، وانزع من نفوسنا حب الغلبة على ما حولنا ، وصرّف إرادتنا فيما فيه نجاح البلاد والعباد ، وألهمنا معرفة العارفين وإرادة المختارين لتستشعر نفوسنا بالخير الذى هى مسوقة إليه ، آمين .

* * *

(المتوكل على الله جعفر) (*)

هو المتوكل على الله جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد ، بويع له فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

كان المتوكل ذكى الفكرة ، ذكى الفطرة ، ظهيراً للسُّنَّة يميل لعمل أهلها ونصرتهم والمدافع عنهم ، فأخذ منذ ملك قياد الأمر فى رفع المحنة التى وقعت والبلية التى عظمت وهى محنة القول بخلق القرآن التى استمرت من عهد المأمون إلى عهد المتوكل ، وانقضت السنين الطويلة والأمة لا تعان على صرف بليتها عنها مع أنها على غير طائل ، وقد أصاب جماعة المسلمين منها ضرر وأى ضرر ، وأمر بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس أيام المعتصم والواثق، وأمر بالتسليم والتقليد .

كتب المتوكل إلى الآفاق فى سنة أربع وثلاثين بترك هذه البدعة ، واستقدم المحدثين إلى سامرّا (سر من رأى) للتحديث وإظهار السُّنَّة والجماعة ، وأجزل عطاياهم وأكرمهم وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية ، وأجلس أبا بكر بن شيبة فى جامع الرصافة ، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس ، وأجلس أخاه عثمان فى جامع المنصور ، فاجتمع إليه أيضاً نحو من ثلاثين ألف نفس ، وتهلل الناس فرحاً ، وانطلقت الألسنة بالدعاء للمتوكل وبالغوا فى الثناء عليه ، ووافق ذلك إصابة ابن أبى دؤاد (محدث هذه البدعة ومبتدعها) بفالج صيره حجراً ملقى، فأزاح الله هذه البلية ورفعها عن أمة نبيه ﷺ واستراح الناس.

أخذت جماعة المؤمنين فى الثناء على المتوكل وتعظيمه حتى قال قائلهم : «الخلفاء ثلاثة» : (أبو بكر) رضى الله عنه فى قتل أهل الردة ، و(عمر بن عبد العزيز) فى رد المظالم ، و(المتوكل) فى إحياء السُّنَّة وإماتة التجهم .

(*) انظر : البدء والتاريخ : ٦/ ١٢٠ - ١٢٣ ، البداية والنهاية : ١٠/٣٤٩ - ٣٥٢ ، تاريخ الخلفاء ٢٧٢ - ٢٨٤ ، تاريخ الخلفاء لابن يزيد ٤٢ - ٤٣ ، تاريخ الطبرى : ٩/ ٢٢٢ - ٢٣٤ ، تاريخ مختصر الدول ١٤٢ - ١٤٦ .

اللَّهُمَّ لا سيطرة على خلفاء الإسلام ، ولكن الإنسان يستخذى من نفسه إذا وجد أن عهداً طويلاً وزمناً مديداً استوعب خلافة أربعة من الخلفاء ينقضى فى أمر بدعة كان يسع فيها جماعة المسلمين ما وسع النبى ﷺ وأصحابه الكرام والانصراف إلى فتح الفتوح والتوجه لما فيه المنفعة استجلاباً لحسن السيرة والنظر فى الضوابط السلطانية والأمور الحربية بالجمع والتفريق والتبعيد والتقريب والتشتيت والتأليف ، واستعمال المجربين الذين أمنت خيانتهم ، وتحققت أمانتهم حتى ينقلوا طبع الأمة من الميل إلى الاعتدال ويعرفوها صفات الخير والصلاح .

ينبغى للأمة الإسلامية أن تتعظ بمثل هذه الحوادث فتتجنب كل ما يؤديها للتفرقة ويجرها للتباغض ، ويجعل سهمها بينها ، فإن شر الافتراق قد جر عليها ما جره من الويل والثبور ، وأصبحت وقد ضرب بينها بسور من التخاصم والتباغض ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفى سنة ثمان وثلاثين حدثت حوادث جوية عظيمة منها : خروج رياح بالعراق شديدة السموم أحرقت الزرع ، ومنعت الناس المعاش ، وزلازل فى جهة أنطاكية خرت منها الجبال وتقطعت ، ووقع من السماء برد فى حجم الحجارة ، وغارت عيون الماء بمكة ، فأرسل المتوكل لأهل البلاد التى دهمتها هذه الحوادث بما تعطف به من الإحسان .

وبعث إلى بلد الله الحرام بمائة ألف دينار لإجراء الماء من عرفات إليها .

انتهب المتوكل من أيام الخلافة التى كانت ممنوّة بالمشاكل أياماً اشتغل فيها بالفتوحات ، ففى خلافته فتح العباس بن الفضل أمير صقلية بها الفتوحات العظيمة ، واستولى على قصريانة .

ولما استولى المسلمون على جزيرة صقلية وافتتح جالية الأندلس أقريطش اغتاظ الروم وجهزوا نحو ثلاثمائة مركب عليها ثلاثة أمراء ، فأخذت بالجولان فى عرض البحر الأبيض المتوسط تنتهز الفرص للإيقاع بالمسلمين .

من ذلك أنهم انتهوا إلى مدينة دمياط بمائة مركب وخرجوا على غرة من أهلها ، وكانت فارغة من الجند فأحرقوا وسبوا وتقدموا حتى وصلوا مصر ، ثم رجعوا ويقال : إنه لم يتعرض لهم أحد فى طريقهم .

وفى خلافته افتتح « بغا » قائد جنوده مدينة « تفليس » (١) ، وغزا المسلمون الروم عدة مرات فغنموا وفتحوا وغزا الفضل بن خاقان بالأساطيل فافتتح حصن أنطاكية ، وفى خلافته أغار « البجاة » (٢) ، وامتنعوا من أداء الخمس على مصر حتى ولى محمد بن عبد الله القمى أسوان وقفط والأقصر وإسنا وأرمنت ، وأمر بحربهم ، فزحف عليهم فانهزموا واستأمنوا على أداء الخراج كما كان .

كانت أيام المتوكل أحسن الأيام وأنضرها لحبه فى استقامة الملك ، وشمول الناس بالأمن ، ورخص السعر وبث العدل ، وكونه وسطاً فى كل شىء : فى جوده وإمساكه ومضاحكه وهزله ومجونه وطربه ، وكان ولعاً بالأدب محباً للشعر والشعراء ، وهو الذى يقول فيه بعضهم :

فامسك ندى كفيك عنى ولا تزد　　　فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

وظهرت فى مدته ثياب لباس الملحم ، وهى فى نهاية الحسن والصبغ وجودة الصنع ، وعرفت بالثياب المتوكلية ، وحدث فى أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيرى والكمين والأروقة نسبة إلى ملوك الحيرة ، وهو عبارة عن رواق فيه صدر وميمنة وميسرة وخزانة للكسوة وبيت لما يحتاج إليه من شراب وغيره .

ولم يعلم بأحد متقدم فى صناعته فى جد أو هزل إلا وقد حظى فى دولته بنصيب وسعد فى أيامه ، فكانت أيامه مزهرة بكل جميل .

كان ولعاً بحب أهل الخير والصلاح عاشقاً للعلماء حتى إنه لما ظهر فى عهده فى مصر (ذو النون) وتكلم فى ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، وأنكر عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم رئيس مصر ، وأجل أصحاب ابن أنس رضى الله عنه فى زمانه ، وقال بأنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف ورماه بالزندقة ، وبلغ الأمر المتوكل أمر بإحضاره فاستدناه ، وسمع كلامه فولع به وأحبه وأدرك منزلته وأكرمه ، وكان يقول : (إذا ذكر الصالحون فحيهلا بذى النون) ، وكان

---

(١) تفليس : قاعدة الحكومة المحلية فى بلاد القوقاز التابعة لدولة روسيا الآن .

(٢) وهم البشارية الساكنون بالجهة الشرقية من النوبة بين البحر الأحمر والنيل .

متمذهباً بمذهب الشافعي رضى الله عنه ، وهو أول خليفة اتخذ مذهباً ، وكان يقول : (أيها الناس ، إن محمد بن إدريس المطلبى قد صار إلى رحمة الله وخلف فيكم عملاً حسناً فاتبعوه تهتدوا : « اللَّهُمَّ ارحم محمد بن إدريس رحمة واسعة ، وسهل عليّ حفظ مذهبه وانفعنى به » .

وكان لا يأنف من الموعظة : من ذلك أنه جمع فى داره مجلساً من العلماء ، وكان فيهم أحمد بن المعدل وغيره ، فخرج عليهم فقام الناس غير أحمد بن المعدل ، فقال المتوكل لعبيد الله : « ما باله ؟ » ، قال : إن فى بصره سوء ، فسمعها أحمد بن المعدل فقال : يا أمير المؤمنين ، ما فى بصرى سوء ، ولكن نزهتك من عذاب الله ، قال النبى ﷺ : « من أحب أن تتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعدة من النار » ، فسر به المتوكل وجلس إلى جانبه .

ومن كلامه مع يزيد المهلبى : « إن الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليحبونى ويطيعونى » .

كان مدركاً خطارة مركز الخلافة والمسئولية التى تحيط به ، فكان يذوق منها مرارة العواقب، كما يسيغ حلاوة المآرب ، وكان فى أغلب أوقاته مطرقاً مفكراً.

دخل عليه مرة وزيره الفتح بن خاقان ، وهو على هذه الحالة فقال له : ما هذا الفكر ، فوالله ما على ظهر الأرض أطيب منك عيشاً ، قال : « يا فتح أطيب منى عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة لا يعرفنا فنؤذيه ، ولا يحتاج إلينا فنزدريه » .

كان المتوكل يروى الحديث عن أبيه وجده ومات فى عهد خلافته الكثير من خيار الناس ، والعدد العديد من شرارهم ، فمن خيار الأمة الأعلام ذو النون المصرى ، وأبو ثور والإمام أحمد بن حنبل ، ودفن بباب حرب فى الجانب الغربى بمدينة السلام ، وعبد الملك بن حبيب إمام المالكية ، وسحنون صاحب التآليف ، وإسحاق بن راهويه ، ومن أصحاب الفتن ابن دؤاد صاحب فتنة القول بخلق القرآن ، وأبو بكر الهذلى العلاف شيخ الاعتزال ، وجعفر بن حرب من كبار المعتزلة ، فأزال الله بموتهم عن الأمة ما كان محيطاً بها من الخبال ، وما اكتنفها من سوء الحال .

وأخرج أحمد بن حنبل قال : سهرت فى ليلة ، ثم نمت فرأيت فى نومى كأن رجلاً يعرج به إلى السماء وقائلاً يقول :

ملك يقاد إلى مليك عادل   متفضل بالعفو ليس بجائر

ثم أصبح الصباح فجاء نعى المتوكل من « سر من رأى » إلى بغداد .

وكان له تعلق شديد بالفتح بن خاقان وزيره ، ومن أغرب ما وقع : أن المتوكل قال للبحترى : « قل فى وفى الفتح شعراً فإنى أحب أن يحيا معى ولا أفقده ، فيذهب عيشى » ، فقال فى هذا المعنى :

كيف أخلفت يا حبيبى وعدى   وتثاقلت عن وفاء بعهدى

لا أرتنى الأيام فقدك يا « فتح »   ولا عرفتك ما عشت فقدى

أعظم الرزء أن تقدم قبلى   ومن الرزء أن تؤخر بعدى

حذراً أن تكون إلفاً لغيرى   إذ تفردت بالهوى فيك وحدى

فقتلا معاً .

وأغرب من ذلك ما حدث به البحترى قال : اجتمعنا ذات يوم فى مجلس المتوكل فتذاكرنا السيوف ، فقال بعض من حضر : وقع لرجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ، فأمر المتوكل بكتابة كتاب إلى عامل البصرة بشرائه مهما بلغ ، فنفذت الكتب . قال البحترى : وبينما نحن عند المتوكل فى ليلة أخرى إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه فسر المتوكل به وانتضاه واستحسنه وجعله تحت ثنى فراشه ، فلما كان الغداة طلب من الفتح بن خاقان غلاماً يثق بنجدته وشجاعته ، فجاءه بباغر التركى ، فدفع إليه السيف وزاد له الرزق ، ولم تمض الأيام حتى قتل المتوكل بذلك السيف من يد باغر المذكور قياماً بغرض المنتصر .

كان السبب فى قتل المتوكل ذلك الخطأ الشديد وسوء التصرف فى أمر ولاية العهد ، ولم يعتبر بما كان من أمر الرشيد فى الأمين والمأمون ، فبايع المتوكل بولاية العهد لابنه المنتصر ، ثم المعتز ، ثم المؤيد ، وولى كل واحد منهم قسماً من المملكة .

ثم بدا له أن يقدم المعتز لمحبته لأمه فسأل المنتصر أن ينزل عن ولاية العهد ، فأبى فكان يحضره مجلس العام ويحط من منزلته ويتهدده ويشتمه ويوعده ، فما زال المنتصر يرتقب الفرص حتى تحقق أن الجيش التركى الذى اتخذه المتوكل انحرف عنه لأمور ، فاتفق معهم على قتل أبيه فدخلوا عليه خمسة وهو فى جوف الليل فى مجلس أنسه وقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان ، وذلك فى خامس شوال سنة سبع وأربعين ومائتين .

وفى ذلك يقول البحترى من قصيدة له :

أكان ولى العهــد أضــمر غدره فمن عجب أن ولى العهد غادره

فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ولا حـــملت ذاك الدعاء منابره

ألا إنما المطمئن للدنيا مغرور والساكن للدهر جاهل ، فهى دار لا يدوم نعيمها ولا يتم سرورها ولا يؤمن محذورها ، قرنت السراء بالضراء ، والشدة بالرخاء، والنعيم بالبلوى ، وجعلت خاتمة كل نعيم فيها زواله ، عزيزها ذليل وقويها مهين وغنيها محروب وعظيمها مسلوب ، وليس أبقى على صفحات أيامها من عمل مقصود به الخير والبر والإحسان ، فهى التى تعجز عن أن تأكله بأنياب فنائها ، ولا يزال يذكر به فاعله وهو على جدة لا يبلى ، فالله سبحانه وتعالى يوفقنا للعمل النافع الدائم ، الذى لا تبليه الأيام ولا تفنيه الأعوان ، آمين .

* * *

(نبذة تاريخية)

قد أتينا فيما سبق من رسائل « حماة الإسلام » بما شاء الله أن نكتب من تراجم خلفاء الدولة العباسية ، واتصل بنا الكلام لحد ترجمة « الخليفة المتوكل » فخالفنا بذلك أكثر فلاسفة المؤرخين لاعتبارهم تلاشى واضمحلال الدولة العباسية من قبل ذلك ، أى (بخلافة المعتصم) لأنه انحرف عما يوجبه عليه حق الجماعة، فجعل كبار قواده وعمال جبايته وحاشية خلافته وجنديته من غير اللب الخالص من صميم العنصر العربى .

ولكن لما كان من العدل إظهار الفضل ، وكان « للمتوكل » - رحمه الله - حسنات كثيرة من أجلها وقوفه أمام فتنة القول بخلق القرآن التى هدت الخلافة العباسية وصرفتها عن كثير من وجوه الخير حتى أبطلها ، ثم تصديه لإحياء السنن الشريفة المعطلة وإماتة البدع السيئة المنتشرة حتى سمى « أبا بكر الثانى » ختمنا به تراجم تلك الخلافة ليكون خاتمة خير لها ، ولكى لا تغيب عن الذكر أفعاله وفضائله هذه .

اضمحلت الخلافة العباسية بالأسباب التى اضمحلت بها الخلافة الأموية من جهة الخروج عن جادة العلم والعدل وزادت عليها عوارض أخرى أصابتها متتالية، فكانت أشد بلاء من تلك الأسباب المتقدمة :

منها : كثرة المذاهب ، واضطهاد الأئمة والتفرق فى الاعتقاد ، وظهور أصحاب الدعوات الباطلة كالباطنية والفاطمية والشيعة والمعتزلة والراوندية ، وغيرهم .

ومنها : كثرة وجود دخلاء الأعاجم الذين فعلوا فى الدولة العباسية ما لا يفعله العدو الفاتك بعدوه .

إن المستقرئ للحوادث المتتبع لمجريات الأحوال يحكم بأن دخول طائفة الديلم والأعاجم فى خدمة الخلفاء مقصود منه اضمحلال هذه الخلافة بأيديهم .

أدخلت هذه الطائفة نفسها فى خدمة الخلافة بقصد الانتقام والأخذ بثأر

الفتوحات الإسلامية التى قامت بها العرب فى بلادها من أول فتح المدائن إلى عهد الفتوحات العباسية ، (والخلفاء غفلت عن ذلك) ، وهو ما تؤيده الأعمال الوحشية التى وقعت من عامة الجند والأقوال الصريحة التى سمعت من كبار قواده.

أظهر هذا وهذا أن فى النفوس حزازات قديمة ، وفى الصدور ضغائن كامنة ، وأن كل أعمالهم أعمال المنتقم لنفسه المضمر التشفى بالعدوان أماتوا المنتصر مسموماً والمستعين بالله مذبوحاً ، والمعتز بالله معذباً عطشان ، والمقتدى بالله مقتولاً ، والمتقى بالله مسمولاً (١) .

وهكذا لكل خليفة عندهم قود ، ودام هذا التجرؤ والعدوان متواصلاً منهم على مقام الخلافة ، وهم يتفننون فى إيصال المكروه إليه وإيقاع الأذى به كالخلع والتمثيل والتقتير والتعطيش حتى نمت فيهم القوة وخافتهم الناس اتقاء شرهم ، وظهر كامن الغيظ من رؤسائهم ، « والظلم كمين فى النفس القدرة تظهره ، والضعف يخفيه » ، فسمع من « مرداويج » مقدم الديلم بأصفهان الذى مات فى خلافة الراضى سنة عشرين ومائتين يقول : « سأرد دولة العجم وأمحق دولة العرب » (رواه السيوطى فى تاريخه المعروف بتاريخ الخلفاء) ، وقد أعينوا على ذلك بقدر من الله وقضاء سابق فجلوها عن بغداد ، وفعلوا بآثارها ما لا يفعله السوس بالصوف .

الدخلاء فى كل ملة ودولة موضع تنازع مستمر وظلم من الأحن حالكة ، وكثيراً ما هدموا قصور السلاطين والأمراء من كل أمة ، وشر هذه الطبقة لا يقف عند حد ، وأقرب مذكور منهم من استخدمتهم الدولة العلية (صانها الله) فى خاصة خداماتها من الأرمن والبلغاريين وغيرهم من أهل البوسنة والهرسك ، ثم ما أحاط بالأمة المصرية حتى نزل بها فى هاوية الهلاك ، كانت ولا تزال يد الأغراض من كل دولة تدير حركة هؤلاء الأجانب من وراء الحجاب ، فيتحركون وفق إرادتهم (كأشباح اللاعب) فينشئون سحباً من الأوهام والأباطيل يقذفون بها فى عقول الخاصة فضلاً عن العامة ، حتى يتم لهم من الفتنة ما يريدون .

---

(١) سمل العين : فقؤها بحديدة محموة .

وصلوا بسوء أفعالهم فى الدولة العباسية إلى أن قتل الأخ أخاه ، ووقعت بين الناس حالة من الوحشة حتى ظنوا بأنفسهم سوء وخافوا كيد بعضهم بعضاً ، وأنها لموعظة تبقى بقاء الدهر تزعج الغافل ، وترجع بلب الذاهل ، وتحمل المعتبر بها من أهل السلطان على رعايتها ليستقيم إليه أمر الناس .

تخللت الخلافة العباسية شؤون وأمور ذات بال بعضها يذكر للبركة ، ونيل الأجر بإذاعة الفضل ، وبعضها يذكر حتى يتعظ به المهتدى ، ولا بد لنا من أن نأتى عليها قبل الانتقال إلى ذكر « حماة الإسلام » فى الدولة الإسلامية الأخرى لأنها لهذه الخلافة تبع : منها تراجم الأربعة الأئمة رضوان الله عليهم ، وما خصهم من الفضل وابتلاهم به من المحن : كأبى حنيفة ، ومالك بن أنس ، والشافعى ، وابن حنبل رضى الله عنهم ، لموافقة أزمانهم لصدر الخلافة العباسية، ولأنهم زينة تراجم « حماة الإسلام » ، إذ هم بهجة مفاخر الأنام ، ومنها ما حدث فى مصر من التحالف مع سدة الخلافة العباسية فى عهد المعتضد ونزوعها للاستقلال جرياً وراء أغراض « أحمد بن طولون » والشقاء الذى نجم عنه فى الدولة العباسية ، والويل الذى جر هذا العمل على أهل مصر لأتباعهم هواه وسيرهم على وفق خطرات أفكاره بلا ترو ولا تفكر حتى انجلى الأمر بصرف وجوه المصريين عن باب الخلافة ، وأصبحوا ملعبة دولة الإخشيدية وخلافة الفاطميين التى سنت لهم سنناً تعدت ضروب المحال ، ومنها دخول القائد جوهر بجيش المعز لدين الله مصر والأسباب التى تقدمت هذا الفتح وسهلته ، والأحوال التى استكشفها المعز لدين الله فى الأمة المصرية قبل أن يدخلها قائده بجيشه فاتحاً بما فى ذلك كله من موعظة لمتعظ وعبرة لمعتبر وزجر لمزدجر ، ثم نأخذ بعد ذلك فى سرد تراجم ساداتنا خلفاء الخلافة الأموية فى الأندلس التى ابتدأت بالخليفة عبد الرحمن حفيد هشام الأموى ، فجمعت أشتات الفضائل ورفعت للعلوم والفنون أعظم منار ، وكانت زينة الإسلام وفخره وعزه وشرفه ، والله الموفق .

* * *

(أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه) (*)

هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ، اختلفوا فى تاريخ ميلاده اختلافاً كثيراً بين سنة إحدى وستين وسنة ثمانين .

هو أول من حفظ الشريعة بالتلقين ، وكان على يده انتشار السُّنَّة ، وتمام حاجة العالم الإنسانى بها ، وهو المفزع لكل ملهوف ، والغياث لكل مهموم والمنار الذى به يهتدى المتحير ، ويسلك الناس على نوره وضح الطريق .

هو أحد أركان العلماء ، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، أدرك عصر الصحابة ، ورأى أنس بن مالك ، وأطبق العلماء على علمه ودينه وورعه وزهده ، ووفقه الله تعالى حتى اجتمع ما يقرب من شطر الإسلام على تقريره والأخذ بقوله ، عصمه الله عن القول بخلق القرآن والقول بالقدر والقول بالإرجاء ، مع أن هذه الأقوال وغيرها كانت من مقتضى السير الطبيعى للزمن الذى كان فيه ، وكانت سبب المودة والقربى للخلفاء والأمراء ، ولكن أبى الله أن تسطو على روحانيته نفس إنسانية .

كان حسن الوجه ، ربعة ذا شهامة عظيمة ، من أحسن الناس منطقاً ، وأحلاهم نغمة ، وأنبههم حالة ، حسن الهيئة ، جميل الثياب والبزة ، كثير العطر يعرف بطيب الريح قبل أن يقبل ، شديد الكرم ، حسن المجلس ، كثير المواساة لإخوانه ، وصفه صاحبه أبو يوسف للرشيد ، إذ سأله عنه فقال : « قال الله تعالى ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ ، وهو عند لسان كل قائل ، كان والله أبو حنيفة شديد الذب عن محارم الله مجانباً أهل الدنيا فى دنياه طويل

(*) انظر : البداية والنهاية : ١٠/١٠٧ ، تاريخ بغداد : ١٣/٣٢٣ ، تذكرة الحفاظ : ١/١٦٨ ، تهذيب التهذيب : ٢/٢١٦ ، تهذيب التهذيب : ١٠/٤٤٩ ، الجواهر المضيئة: ١/٢٦ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣٤٥ ، شذرات الذهب : ١/٢٢٧ ، طبقات ابن سعد : ٦/٢٥٦ ، طبقات الفقهاء ٨٦ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ٢/٣٤٢ ، العبر : ١/٢١٤.

الصمت دائم الفكر لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً ، إن سئل عن مسألة وكان عنده علم فيها أجاب على ما سمع وبما ثبت عنده ، ما علمت يا أمير المؤمنين رجلاً أكثر منه اشتغالاً بدينه عن نفسه وعن الناس لا يذكر أحداً إلا بخير ، (فقال هارون : هذه أخلاق الصالحين) .

وقال الشافعى رضى الله عنه : (ما قامت النساء عن رجل أعقل من أبى حنيفة) ، وقال جعفر بن الربيع : (أقمت عند أبى حنيفة خمس سنين ، فما رأيت أطول صمتاً منه إذا ترك ولا أشد سيلاناً منه إذا سئل) .

كان لا يفتر لسانه فى خلوته عن تلاوة القرآن ، وربما أتم فى بياض نهاره ختمة، وفى سواد ليلته أخرى ، وكثيراً ما صلى الفجر والعشاء بوضوء واحد ، ولم يسمع حالفاً فى عرض حديثه .

يروى عنه أنه لما أراد طلب العلم جعل يتخير ويسأل عن عواقب العلوم ونتائجها ، فلم يجد علماً يسأل فيه صاحبه ويفتى الناس بما يغنيهم به غير الفقه ، فلزمه وترك علم الكلام الذى كان مشتغلاً به ، وأتى أبا إسماعيل حماد بن أبى سليمان وهو شيخ وقور حليم لم ير أفقه منه فى زمانه ، وله مناقب كثيرة ، فلازمه ، ووجد عنده كلما طلب وما زال حتى كان يجلس فى الحلقة بحذائه واستنابه ، وأمره أن يجلس مكانه أزمان تغيبه بالبصرة ، ولم يفارقه حتى مات فكانت صحبتهما ثمان عشرة سنة .

أخذ حماد بن سليمان رضى الله عنه العلم عن إبراهيم النخعى وهو أخذه عن علقمة والأسود ، وهما أخذاه عن عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب وعبدالله ابن مسعود رضى الله عنهم ، فلما مات إبراهيم النخعى رضى الله عنه ، وكان مفتى الكوفة جلس أبو حنيفة رضى الله عنه للإفتاء بعده بإجماع من جماعة المسلمين والتابعين ، واختلف إليه الناس وكان أكثرهم اختلافاً إليه ، صاحبه أبا يوسف ، ولم يزل كذلك حتى استحكم أمره ، واحتاج إليه الأمراء ، وذكره الخلفاء ، جلس للإفتاء لينتفع به الناس ويسهل عليهم معرفة حدود الله سبحانه وتعالى ويردهم إلى أوامره ، ويحظر عليهم المحرمات .

وذكر فى مسنده ما يقرب من مائتى شيخ ، أخذ عنهم العلم ، وروى عنهم

الحديث ، وفيهم من التابعين حتى أن بعضهم رتب أسماءهم على حروف الهجاء لم يخل حرف واحد منها .

حدث أبو الحسن بن على الخطيب عن على بن بدر القاضى قال : حدثنا هلال بن بدر أبى العلاء عن أبى حنيفة قال : لقيت سبعاً من الصحابة ، وسمعت من كل واحد منهم خبراً .

كان غاية فى الفراسة والفطنة حتى كاد أن يدرك بها المغيب ونوادره فى ذلك كثيرة جداً .

وهو أول من اخترع معرفة عد اللبن والآجر بالتقصيب ، فعل ذلك فى عد آجر سور بغداد لما كلفه المنصور بذلك .

ومن مكارم أخلاقه أنه كان له جار يعمل نهاره أجمع ، فإذا جن الليل رجع إلى منزله ، وقد حمل لحماً فطبخه أو سمكة فشواها ، ثم لا يزال يشرب ويغرد بصوته :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

حتى يأخذه النوم وأبو حنيفة يسمع كل يوم جلبته ، ثم فقده ليلة ، وعلم أن العسس أخذه فركب واستأذن على الأمير وسأله تخليته ، فقال له الأمير : وكل من أخذ فى تلك الليلة ، فلما خرج الفتى قال له أبو حنيفة رضى الله عنه : (أأضعناك ؟؟) ، وناوله ما يستعين به على نقصان دخله فى أيام حبسه ، فكشف الله بهذا الفعل الغمة عن عقل الفتى حتى تاب واختلف إلى أبى حنيفة حتى تفقه.

كان مع اشتغاله بالفقه يبعث بالبضائع إلى بغداد للتجارة ويجريها مجرى الفضل على إخوانه ، فيشترى ما يحتاجه شيوخه من المحدثين والفقهاء ويعطيه لهم محتسباً ربحه من أثمانها ، ويقول : هذا رزقكم أجراه الله على يدى مثل ذلك أن فقيهاً احتاج مرة لثوب خز فقال : ما لونه ؟ قال : كذا ، فقال : اصبر، ثم استدعاه بعد أيام ، وقال : هذه حاجتك وثمنها درهم ، فقال له الفقيه : تهزأ بى ، قال : لا والله ، اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم بعت أحدهما بعشرين ديناراً، وبقى هذا بدرهم وما كنت لأربح على صديق، فأخذه وشكره.

لقد دفع أبو حنيفة رضى الله عنه لمقامات من الحكم تتنافس عليها الناس

وتتصنع لها فامتنع عنها طلباً للسلامة فى دينه ومنح العطايا فلم يقبلها ، ومنعه عفاف النفس وطهارة الذيل .

أراد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق أن يدخله فى « الطراز » أى صدقات بيت المال فأبى ، وطلب منه أبو جعفر أن يلى قضاء الكوفة ، فلم يقبل فضربه بالسياط وسجنه وقيده بأثقل الحديد ، فلم يقبل وجاءته أمه ، وقالت له : يا نعمان ، إن علماً ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه ، فقال: يا أماه ، لو أردت الدنيا ما ضربت ، ولكن أردت وجه الله وصيانة العلم ، ولم أعرضه للهلكة .

صدق القائل : « الرجال سواء حتى تقع المحن » تحتاج الوقفة التى وقفها أبو حنيفة رضى الله عنه أمام أبى جعفر لعقل كبير يرشده ، وعزم شديد يؤيده وهداية عظيمة تنبهه ، حلف عليه أن يلى القضاء ، فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل ، فكرر الخليفة اليمين فثناها أبو حنيفة ، فقال له الربيع أمير المؤمنين : يحلف وأنت تحلف فقال : إن أمير المؤمنين أقدر منى على كفارة أيمانه ، فأمر بحبسه وما زال فيه حتى مات سنة خمسين ومائة وعمره سبعون سنة ، وقيل : إنه توفى فى اليوم الذى ولد فيه الشافعى رضى الله عنه ، وتولى غسله الحسن بن عمارة ، فلما غسله قال: رحمك الله يا من لم تفطر ولم تتوسد يمينك بالليل منذ ثلاثين سنة والله لقد أتعبت من بعدك .

كثرت الأقوال فى كيفية حبسه وتعذيبه حتى قيل : إنه كان يخرج فى كل يوم ويضرب ، فلما تتابع عليه الضرب مرض ومات ، وقيل : إنهم ضيقوا عليه الأمر حتى فى طعامه وشرابه ، ومهما يكن فى هذه الأخبار من المبالغة ، فإن الحبس متفق عليه لتواتر خبره ، وكفى به عذاباً لمثل هذا الإمام العظيم : « أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » .

هذا الشعور الذى يهيئ النفوس لارتقاء درجات الكمال والوصول لأطراف المراتب والغايات فقده كثير من علماء الإسلام ، فأصبحوا يشترون رضاء الناس بغضب الله تعالى حتى أدى ذلك للسكوت عن النهى ، وأوجب هذا حدوث البدع والفوضى الدينية ، وانصرف كل واحد من الناس إلى هواه ، فانحطت رتبة العلم :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم   ولو عظموه فى النفوس لعظموا

نعم لو حدثوا الناس عن جلاله وشرحوا للعقول ما خفى من شئونه وبينوا مداخل السعادة الدنيوية والأخروية فيه ، وجاءوا للناس معبرين بما تحتمله طاقة العقول ، ولا يبعد عن متناول الإفهام لقومت نفوس وكبحت شهوات ، ولكن هذا ما أراده الله ولا حول ولا قوة إلا به .

هذه بعض كلمات من ترجمة هذا الإمام ، وما كان لنا ولا لغيرنا أن نحصيها وندونها فى مثل هذا القليل ، ولكن هذه القطرة تدل على مكان ذلك البحر ، والغرض التشوف لمثل هذا الكمال ونهوض الهمم لقطع سلاسل التقليد وإصلاح النفوس التى غفلت ولهت عن أصول مكارمها التى كان ينبغى أن تفاخر بها الأجيال وتسمو بها فوق كل كمال .

* * *

(القاضى أبو يوسف رضى الله عنه) (*)

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصارى أحد الصحابة رضى الله عنهم . ولد فى سنة ثلاث عشرة ومائة ، وكان جده ممن أبلى البلاء الحسن فى الوقائع النبوية ومشهد الخندق ، فرآه النبى ﷺ يقاتل قتالاً شديداً على حداثة سنه ، فمسح بيده الشريفة على رأسه فبقيت فى الذرارى بركتها .

مات أبوه وهو صغير فقير لم يكن له ما يطعمه الخبز ويسقيه الماء ، فأسلمته أمه إلى قصار ، فكان يفر منه ويمر على حلقة درس أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه، فلما طال ذلك عليها جاءت إلى الإمام وقالت له : إن ولدى هذا صبى يتيم فقير وقد أفسدته علىّ فقال لها : (دعيه فسيأكل الفالوذج فى طباق الفيروزج) وناولها مائة درهم وقال : إذا فرغت فاعلمينى ، وكان يتعاهدها بعد ذلك كأنما يخبر بنفاذ ما عندها ، ولم يزل أبو يوسف حتى صار رأس الحلقة وانتهت إليه الرئاسة الدينية والدنيوية والإمامة فى الفقه والحديث وحفظ التفاسير والسير، وأيام العرب .

كانت تهمز بأبى يوسف نفسه إلى رقى وكمال وسعادة حال وتسمو به إلى مقام رشد بلغه طريق الهدى الإلهى الداخل تحت قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾(1) ، فقدر بهذا السلوك على تمزيق الحجب وأصبحت روحانيته تتلذذ بالحديث ونفسه البارة تتنقل فى رياض المعرفة كأنما ذلك من بركة تلك المسحة .

نذكره بعد أبى حنيفة رضى الله عنهما لأنه فى مقام حسن الختام لبراعة استهلال ترجمة الإمام ، إذ المذهب الحنفى أخذ عن أبى حنيفة بالتلقين ، وحفظ عن أبى يوسف بالتدوين ، وكما ملأ الإمام به الصدور حلى به القاضى السطور، فنقله من ضيق النفوس إلى سعة الطروس ، فهو إكليل التاج ومفتاح ذلك الرتاج

(*) انظر : تذكرة الحفاظ : ١/ ٢٩٢ ، الجواهر المضيئة : ٢/ ٢٢٠ ، شذرات الذهب : ١/ ٢٩٨ ، طبقات الفقهاء ١٣٤ ، العبر : ١/ ٢٨٤ ، الفهرست لابن النديم ٢٠٣ ، ميزان الاعتدال : ٤/ ٤٤٧ ، وفيات الأعيان : ٢/ ٣٠٣ .

(1) سورة الإنسان ، الآية : ٣ .

الذى كمل نمو نبات العلم بتعهده وتكامل علو بنائه الشامخ على يده ، فهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه ، وأملى المسائل ودونها ، وبث علم أبى حنيفة رضى الله عنه فى أقطار الأرض ولم يكن فى زمنه بين أصحابه ثقة أحفظ لسُنَّة النبى ﷺ ، وأوعى لكتاب الله منه .

تولى القضاء ببغداد لثلاثة من الخلفاء : المهدى ، والهادى ، والرشيد على كراهة منه لرقى مقام القضاء ، وكان يقول : ليتنى لم أدخل فى القضية على أن زين دست القضاء كان محبوباً لخلفاء وقته وزمانه ، وكان عند الرشيد حظياً مكيناً، وهو أول من دعى قاضى القضاة ، لأن الخليفة كان يستنيبه فى سائر الأقاليم التى كان يحكم عليها ، وهو أول من غير لباس العلماء بهذا الزى وما كان لأحد أن يطمع فى رئاسة بلدة فيها أبو يوسف .

جمع شروط القضاء وآدابه وأحكامه : من صدق اللهجة ، وعفاف الطعمة ، وحسن الصمت ، وكثرة الوقار ، وعظم الأناة ، وعزة النفس ، وكرامة الخلق ، وقلة الحرج ، ولطف الطبع ، ورقة الحجاب ، وسعة الصدر ، والصلابة فى الحق ، والتواضع لله ، والثقة فى ذاته ، والإيثار فى إقامة الحدود ، والمساواة بين الخصوم ، والتثبت فى سماع الحجة فلم يتعمد جوراً ، ولم يحاب خصماً ، وكل أحاكمه كانت بما يوافق الكتاب والسُّنَّة .

كان سريع الجواب (ونعم السلاح الناصر الجواب الحاضر) ، حج مع الرشيد معادلاً له ، فلما دخل مكة صلى « هارون » بالناس الظهر ركعتين ، فلما سلم قام أبو يوسف وقال : (يا أهل مكة ، أتموا صلاتكم فأنا قوم سفر) ، فقال رجل من فقهاء مكة : نحن أفقه من أن نعلم ، فقال له أبو يوسف : (لو كنت فقيهاً ما تكلمت فى صلاتك) ، فطرب لها « هارون » والحاضرون .

ومن أغرب ما سمع عن محفوظه وسعة اطلاعه أنه لم يجر على لسانه فى حديثه مع الرشيد أثناء مصاحبته فى سفره هذا شيئاً معاداً ، فلم يكرر له خبراً ذكره ، ولم يعد له حكاية رواها ، ولا وصل إلى مكان إلا وأخبر الرشيد باسمه ونعته له ، واستشهد عليه بشىء إن كان ثم ذلك ، وناهيك بإمام تخرج على أبى حنيفة رضى الله عنه وسمع من أبى إسحاق الشيبانى ويحيى بن سعيد الأنصارى

وتلك الطبقة ، وكان أفقه أهل عصره لم يتقدمه فى زمانه أحد ، يحفظ من المنسوخ عشرين ألفاً ، فما ظنك بالناسخ .

« كل ذى نعمة محسود » ، وما أدراك بنعمة اشتملت على الرئاسة والجلالة والقدرة والسعة فى سطوة الدين والدنيا والارتقاء على دست القضاء ومقام الفتوى الممثل كل منهما للأمانة والديانة والفضيلة والداعى للقرب من مقام الخلافة، ونفوذ الكلمة وشدة السطوة .

أراد الأعداء الحط من هذا المقام العالى ، فما وجدوا إليه سبيلاً فجاءوا لبعض أبواب وصاغوا منها مسائل مجعولة فى الفقه والفتوى خرّجوها على غير وجهها وتوسعوا فيها بأكثر من حدودها وافتروها عليه وتصنعوا فى روايتها عنه ، كلهم يستدلون بها على سعة علمه وسمو قوته وقدرته ، وكأنهم من أشد المطرين له المعجبين برأيه فيها ، وهم فى الحقيقة من ألد أعدائه الذين يسرون له العداوة والبغضاء نشروا ذلك بيد بعض المسلمين الذين تدخل عليهم الحيل ، ولا تتكشف لهم أوجه المسائل ، ثم عدوها عليه بعد انتشارها من أشد العيوب وهو برئ منها فما أجدره بقول العربى : « زنوه وحدوه » .

كأنما كان أبو يوسف (أستغفر الله) آلة لتوجيه الأيمان بعد توكيدها فى كل شيء ، وكأنما كانت الخلفاء فى وقته على غير رأى .

ذكروا له أشياء كثيرة فى مسائل طلاق وزواج وعتق وغيره (تجنبناها) ، ورووا عنه لطائف تخيرنا منها بعض الشيء ، فمن ذلك ما يحكى أن الرشيد خاصم زبيدة فى شيء فأغضبها وأغضبته ، فحلف عليها بالطلاق أن لا تبيت ليلتها فى ولايته ومملكته ، ثم ندم على ذلك لشدة حبه وفرط غرامه بها ، فسأل الفقهاء عن وجه الحيلة ، فعجزوا ثم استدعى القاضى أبا يوسف وسأله : هل من حيلة ؟ قال : نعم ، قال : وما هى ؟ قال : قل لها يا أمير المؤمنين : تبيت فى المسجد لأنه لا ولاية لك عليه ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً ﴾ [1] ، فسر الرشيد بذلك كثيراً .

ومما يذكر فى معرض لطائفه أيضاً أن الرشيد رأى فى ليلة من الليالى خنفساء

---

(١) سورة الجن ، الآية : ١٨ .

تدب على بساطه ، فأمر بتعذيب الخادم ، فقال له أبو يوسف : يا أمير المؤمنين ، إن الحيوان بجملته يألف الأضواء والخادم قد تعهد البساط ونحاها عنه ، ولكنها كلما نحيت تعود ، فأمر الرشيد أن تحمل وتنحى بعيداً ، ففعل فعادت ، ثم أمر أن تحمل وتبعد أكثر من الأول ففعل فعادت ، فعفا الرشيد عن الخادم بفضل القاضى .

ومن لطائفه أنه كان يحادث من يختلفون إليه فى حلقة درسه ، فجلس إليه مرة رجل وأطال الصمت فقال له : ألا تتكلم ؟ فقال له : متى يفطر الصائم ؟ فقال: إذا غابت الشمس ، قال : فإن لم تغب إلى نصف الليل ؟ فضحك أبو يوسف وقال : قد أصبت فى صمتك وأخطأنا فى استدعاء نطقك :

ففى الصمت ستر للغبى وإنما   صحـيفة لب المرء أن يتكلما

توفى فى سنة اثنين وثمانين ومائة « فعزى الإسلام بعضه بعضاً بموته » ، ومشى الرشيد فىْ جنازته وصلى عليه ودفنه فى مقبرة أهله فى مقابر قريش بكرخ بغداد بقرب زبيدة ومحمد الأمين .

وقد أوصى قبل موته بكثير من ماله لأهل العلم بمكة والمدينة والكوفة وبغداد ، واستمرت موارد خيراته ومآثره جارية ما شاء الله أعواماً وقروناً .

ومما يحسن إيراده زيادة فى شرف الإمام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه أن الرشيد دعا أبا يوسف ليلة من الليالى ليسأله فى شىء دق على فهمه دركه فأجابه فيه أحسن جواب ولشدة سرور الرشيد بذلك ناوله قطعة من الفالوذج كانت فى صحن من الفيروزج من خاصة متاع الخلفاء ، فبكى أبو يوسف وانتحب ، فلما أفاق سأله الرشيد ، فأخبر الخبر الذى قدمناه حكاية عن أبى حنيفة رضى الله عنه لأم أبى يوسف حين كانت تنهاه عن الحضور فى حلقته وقوله لها : (سيأكل الفالوذج فى طباق الفيروزج) فبكى الرشيد .

يصح أن يقال عن أبى يوسف : إنه أول من حفظ علم الفقه عن أبى حنيفة رضى الله عنهما ورواه ، فأدى الأمانة حقها والسعادة كل السعادة فى اختيار العلم المؤدى للخير الأبدى والحياة الطيبة المرضية ، وهو علم الدين المرتبط به كل علم.

ينبغى أن تكون سيرته هذه مثالاً يحتذيه أهل العلم يتلقونه من أساتذتهم

بالكرامة ويؤدونه عنهم بالأمانة ويؤثرون لذة المحمدة به والثناء عليهم بسببه عن كل لذة ، فهنالك تجتمع لهم الهداية مع العلم ، وتصح النية ، فتقام الفرائض وتحيا السُّنَّة ، وينصرف الناس من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الغش إلى النصيحة ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع .

مثل هذه الأخلاق الشريفة لا يضيع صاحبها ولا يفتقر كاسبها ، ولا يخيب طالبها ، ولا تنحط مراتبها ويصبح المتحلى بها بمنزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك يهدى الناس إلى سواء السبيل .

أنى لنا بأصحاب هذه الأخلاق حتى يذهب عنا ببركتها هذا الطيش والإهمال والإغفال واللجاج فى ما لا فائدة فيه والعناد فى كل شىء .

أى حرية ومدنية تلتمس بأجل وأعظم من الحرية والمدنية الحقة التى تضمنها أدب الدين الذى دعا الناس لعرفان أنفسهم ، وأنهم مميزون بالعقل والفكر ومشرفون بحرية الإرادة فى ما يرشدان إليه .

حجبت العقول بغرور النظر إلى هذا الظاهر ، فاللَّهُمَّ خلصنا من كل تقليد استعبدنا واقتراب قيدنا ، وافتح لنا أبواب فضلك التى لم تغلق دون طالب ولا ضاقت أبوابها على راغب ، واكشف عن عقولنا غمة الوهم وأنعم على أفكارنا بنعمة الفهم ، وعرفنا مقادير النعمة التى نحن فيها حتى نتعلق بها ونقوم بالشكر عليها .



(سيدنا مالك بن أنس رضى الله عنه) (*)

هو الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه إمام دار الهجرة فى زمانه وفقيهها ، وأحد الأئمة الأربعة الأعلام ، اختلفوا فى مولده بين سنى ثلاث وأربع وخمس وتسعين من الهجرة ، وهو من الطبقة السادسة من أهل المدينة .

كان أشقر شديد البياض ، ربعة من الرجال كبير الرأس أصلع ، وكان لا يخضب شيبه لما صح عنده من أن علياً كان لا يخضب ، حسن الهيئة والبزة ، يكره الثياب الخلقة ويعد ذلك مثلة ، وكان نقش خاتمه ﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(1) ، فسئل فى ذلك ، فقال : سمعت الله تعالى يقول عقيب هذه الآيَةَ : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ﴾ (2) ، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم يحوط فيه المستفهمَ عن الشيء هيبة شديدة .

كان لا يحدث إلا وهو متوضئ ولا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه احتراماً لبلد فيها جثة رسول الله ﷺ ، وكان لا ينقطع عن المسجد وتشييع الجنائز وعيادة المرضى وقضاء الحقوق ، فلما كبر انقطع عن ذلك كله ، واحتمل له الناس ذلك .

كان كامل النفس لا يزداد مع الخلفاء عن الأدب الذى يوجبه عليه الدين .

(*) انظر ترجمته فى : الأنساب ، ورقة ٤١ أ ، البداية والنهاية : ١٠/١٧٤ ، تذكرة الحفاظ : ١/٢٠٧ ، تهذيب الأسماء : ٢/٧٥ ، تهذيب التهذيب : ١٠/٥ ، جمهرة الأنساب ٤٣٥ ، حلية الأولياء : ٦/٣١٣ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣١٣ ، الديباج المذهب ١٧ ، الرسالة المستطرفة ١٣ ، شذرات الذهب : ١/٢٨٩ ، صفوة الصفوة : ٢/٩٩ ، طبقات ابن سعد : ٥/٤٥ ، طبقات الفقهاء ٦٧ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ٢/٣٥ ، طبقات المفسرين للداودى : ٢/٢٩٣ ، العبر : ١/٢٧٢ ، الفهرست ١٩٨ ، اللباب : ١/٥٥ ، مرآة الجنان : ١/٣٧٣ ، مروج الذهب : ٣/ ٣٥٠ ، النجوم الزاهرة : ٢/٩٦ ، وفيات الأعيان : ١/٤٣٩ .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٤ .

قدم المهدى المدينة ، فبعث إليه بألفى دينار فقبلها ، ثم وجه إليه الربيع يطلب منه ملازمته إلى مدينة السلام ، فقال له : قل لأمير المؤمنين : المال عندى على حاله ، وكان يدخل على أبى جعفر ، وكانت وجوه بنى هاشم تقبل يده ورزقه الله العافية من ذلك .

وكان شديد الحرص أميناً على العلم . قال جرير : إن أبا جعفر المنصور عزم على أن يحمل الناس على « موطئه » ، فقال له : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق لهم وعملوا به ودانوا ، وقد أصبح ردهم عما اعتقدوه شديداً فدع الناس وما هم عليه .

(لو أن فقيهاً من فقهاء هذه الأزمنة أقبل عليه أحد أعوان أولى الأمر ، وأشار عليه بحمل الناس على ما قاله لعدَّ ذلك فخراً وعزاً وسطا على عموم الناس بهذا القول ، وذلك لأنه يرى مصلحة نفسه لا مصلحة الدين ، ويقدم منفعته على جميع أنواع المنافع) .

روى عن غير واحد من التابعين ، وأخذ القراءة عرضاً عن نافع (*) وهو أثبت أصحابه . وروى عنه وحدث خلق كثير من الأئمة منهم : سفيان الثورى (1) ،

(*) هو مولى ابن عمر أبو عبد الله المدنى ، كثير الحديث . قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع ، عن ابن عمر ، بعثه عمر بن عبد العزيز إلى مصر يعلمهم السنن. مات سنة (١١٦ هـ) ، وقيل : سنة (١١٧ هـ) ، وقيل أيضاً : سنة (١١٩ هـ) .

انظر : تذكرة الحفاظ : ١/٩٩ ، تهذيب الأسماء واللغات : ٢/١٢٣ ، تهذيب التهذيب : ١٠/٤١٢ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣٤٣ ، شذرات الذهب : ١/١٥٤ ، العبر: ١/١٤٧ ، وفيات الأعيان : ٢/١٥٠ .

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى أبو عبد الله الكوفى ، أحد الأئمة الأعلام ، روى عن : أبيه ، وزياد بن علاقة ، وحبيب بن أبى ثابت ، وأيوب ، وجعفر الصادق ، وخلق . وعنه : ابن المبارك ، ويحيى القطان ، وعلىّ بن الجعد . قال شعبة وغير واحد : سفيان أمير المؤمنين فى الحديث ، وقال شعبة : إن سفيان ساد الناس بالعلم والورع . ولد سنة (٩٧ هـ) ، ومات بالبصرة سنة (١٦١ هـ) .

انظر : تاريخ بغداد : ٩/١٥١ ، تذكرة الحفاظ : ١/٢٠٣ ، تهذيب التهذيب : =

وسفيان بن عيينة [١] ، وعبد الله بن المبارك [٢] ، والأوزاعى [٣] ،

= ٤/ ١١١ ، حلية الأولياء : ٦/ ٣٥٦ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٢٣ ، الرسالة المستطرفة ٤١ ، شذرات الذهب : ١/ ٢٥٠ ، طبقات الفقهاء ٨٤ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ١/ ٣٠٨ ، طبقات المفسرين للداودى : ١/ ١٨٦ ، العبر : ١/ ٢٣٥ ، الفهرست ٢٢٥ ، اللباب : ١/ ١٩٨ ، النجوم الزاهرة : ٢/ ٣٩ ، وفيات الأعيان : ١/ ٢١٠ .

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى أبو محمد ، الكوفى ، الأعور ، أحد أئمة الإسلام . روى عن : عمرو بن دينار ، والزهرى ، وزياد بن علاقة ، وزيد بن أسلم ، ومحمد بن المنكدر ، وخلق . وعنه : الشافعى ، وابن المدينى ، وابن معين ، وابن راهويه ، والفلاس . قال ابن المدينى : ما فى أصحاب الزهرى أتقن من ابن عيينة . وقال الشافعى : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز . مات بمكة سنة (١٩٨ هـ) .

انظر : تاريخ بغداد : ٩/ ١٧٤ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ٢٦٢ ، حلية الأولياء : ٧/ ٢٧٠ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٢٣ ، الرسالة المستطرفة ٤١ ، شذرات الذهب : ١/ ٣٥٤ ، طبقات ابن سعد : ٥/ ٣٦٤ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ١/ ٣٠٨ ، طبقات المفسرين للداودى : ١/ ١٩٠ ، العبر : ١/ ٣٢٦ ، الفهرست ٢٢٦ ، ميزان الاعتدال : ٢/ ١٧٠ ، وفيات الأعيان : ١/ ٢١٠ .

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى التميمى ، مولاهم أبو عبد الرحمن المروزى ، أحد الأئمة الأعلام . روى عن : حميد الطويل ، وحسين المعلم ، وسليمان التيمى ، وخلق . وعنه : معمر والسفيانان ، وهم من شيوخه ، وفضيل بن عياض ، وجعفر بن سليمان الضبعى ، ويحيى القطان ، والوليد بن مسلم ، وخلق . وقال الإمام أحمد : لم يكن فى زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه ، وكان صاحب حديث وحافظاً . ولد سنة (١١٨هـ) ، ومات سنة (١٨١ هـ) .

انظر : تاريخ بغداد : ١٠/ ١٥٢ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ١٧٤ ، الجواهر المضيئة : ١/ ٢٨١ ، حلية الأولياء : ٨/ ١٦٢ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٧٩ ، الديباج المذهب ١٣٠ الرسالة المستطرفة ٣٧ ، شذرات الذهب : ١/ ٢٩٥ ، طبقات الفقهاء ٩٤ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ١/ ٤٤٦ ، طبقات المفسرين للداودى : ١/ ٢٤٣ ، العبر : ١/ ٢٨٠ ، الفهرست ٢٢٨ ، اللباب : ١/ ٣٣٤ ، المعارف ٥١١ ، النجوم الزاهرة : ٢/ ١٠٣ .

(٣) هو عبد الرحمن الأوزاعى بن عمرو أبو عمرو ، إمام أهل الشام فى وقته ، نزيل بيروت . روى عن : عطاء ، وابن سيرين ، ومكحول ، وخلق . وعنه : أبو حنيفة ، وقتادة ، ويحيى بن أبى كثير ، والزهرى ، وشعبة . قال ابن عيينة : كان إمام أهل زمانه. وقال ابن سعد : كان ثقة مأموناً ، صدوقاً ، فاضلاً ، خيراً ، كثير الحديث والعلم والفقه=

وابن مهدى [(١)] ، وابن جرير [(٢)] ، والليث بن سعد [(٣)] ،

= ولد سنة (٨٨ هـ) ، ومات سنة (١٥٧ هـ) . انظر : تذكرة الحفاظ : ١/ ١٧٨ ، تهذيب التهذيب : ٦/ ٢٣٨ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٩٧ ، العبر : ١/ ٢٢٧ .

(١) هو عبد الرحمن بن مهدى بن حسان أبو سعيد البصرى اللؤلؤى ، الحافظ . روى عن : شعبة ، ومالك ، والسفيانين ، والحمادين ، وخلق . وعنه : ابنه موسى ، وابن المبارك ، وابن وهب ، وأحمد ، وإسحاق ، ويحيى ، وابن المدينى ، وخلق . قال ابن المدينى : كان أعلم الناس . وقال أبو حاتم : هو إمام ثقة ، أثبت من يحيى بن سعيد ، وأتقن من وكيع . وقال أحمد : إذا حدث ابن مهدى عن رجل فهو حجة ، مات بالبصرة سنة (١٩٨ هـ) .

انظر : تاريخ بغداد : ١٠/ ٢٤٠ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ٣٢٩ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٩٩ ، شذرات الذهب : ١/ ٣٥٥ ، العبر : ١/ ٣٢٦ ، النجوم الزاهرة : ٢/ ١٥٩ .

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الإمام ، العلم ، الحافظ ، الفرد ، أبو جعفر الطبرى ، أحد الأعلام ، وصاحب التصانيف الطواف ، ولد سنة (٢٤٤ هـ) ، ومات سنة (٣١٠ هـ) ، وقال ابن خزيمة : ما أعلم على أديم الأرض أعلم منه .

انظر : البداية والنهاية : ١١/ ١٤٥ ، تاريخ بغداد : ٢/ ١٦٢ ، تذكرة الحفاظ : ٢/ ٧١٠ ، تهذيب الأسماء واللغات : ١/ ٧٨ ، الرسالة المستطرفة ٤٣ ، شذرات الذهب : ٢/ ٢٦٠ ، طبقات الشافعية : ٣/ ١٢٠ ، طبقات الفقهاء ٩٣ ، طبقات العبادى ٥٢ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ٢/ ١٠٦ ، طبقات القراء للذهبى : ١/ ٢١٣ ، طبقات المفسرين للداودى : ٢/ ١٠٦ ، طبقات المفسرين للسيوطى ٣٠ ، الفهرست ٢٣٤ ، اللباب: ٢/ ٨١ ، لسان الميزان : ٥/ ١٠٠ ، مرآة الجنان : ٢/ ٢٦١ ، المقفى : ١/ ١٨٢ ، ميزان الاعتدال : ٣/ ٤٩٨ ، النجوم الزاهرة : ٣/ ٢٠٥ ، الوافي بالوفيات : ٢/ ٢٨٤ ، وفيات الأعيان : ١/ ٤٥٦ .

(٣) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى أبو الحارث المصرى . روى عن : الزهرى ، وعطاء ، ونافع ، وبكير بن الأشج ، وخلق . وعنه : ابنه شعيب وكاتبه أبو صالح ، وابن المبارك ، وقتيبة ، وعيسى بن حماد زغبة . ثقة ، ولد سنة (٩٤ هـ) ، ومات سنة (١٧٥ هـ) .

انظر : تاريخ بغداد : ١٣/ ٣ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ٢٢٤ ، الجواهر المضيئة : ١/ ٤١٦، حلية الأولياء : ٧/ ٣١٨ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣٧٥ ، شذرات الذهب : ١/ ٣٨٥ ، صبح الأعشى : ٣/ ٣٩٩ ، طبقات الفقهاء ٧٨ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ٢/ ٣٤ ، العبر : ١/ ٣٦٦ ، ميزان الاعتدال : ٣/ ٤٢٣ ، النجوم الزاهرة : ٢/ ٨٢ ، وفيات الأعيان: ١/ ٤٣٩ .

والشافعى [(١)] ، والزهرى [(٢)] ، ويحيى بن سعيد الأنصارى [(٣)] ، وغيرهم ، وكان يقول : « العلم دين فانظروا عن من تأخذون دينكم » ، وكان يقول : لا يؤخذ العلم عن أربعة : سفيه يتجاوز الحد ، وصاحب هوى يدعو إلى بدعته ، وكذاب يهون عليه تبديل حديث الناس ، وشيخ لا يعرف ما يحمل، وكان يقول:

---

(١) انظر : إرشاد الأريب : ٣٦٧/٦ ، الأنس الجليل : ٢٩٤/١ ، البداية والنهاية : ٢٥١/١٠ ، تاريخ بغداد : ٥٦/٢ ، تاريخ الخميس : ٣٣٥/٢ ، تذكرة الحفاظ : ٣٦١/١، ترتيب المدارك : ٣٨٢/٢ ، تهذيب الأسماء واللغات : ٤٤/١ ، تهذيب التهذيب : ٣٥/٩ ، حسن المحاضرة : ٣٠٣/١ ، حلية الأولياء : ٦٣/٩ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٧٧ ، الديباج المذهب ٢٢٧ ، الرسالة المستطرفة ١٧ ، شذرات الذهب : ٩/٢ ، صفة الصفوة : ٩٥/٢ ، طبقات الحنابلة : ٢٨٠/١ ، طبقات الفقهاء ٧١ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ٩٥/٢ ، طبقات المفسرين للداودى : ٩٨/٢ ، طبقات ابن هداية الله ١١ ، العبر : ٣٤٣/١ ، الفهرست ٢٠٩ ، اللباب : ٥/٢ ، مرآة الجنان : ١٣/٢ ، النجوم الزاهرة : ١٧٦/٢ ، الوافى بالوفيات : ١٧١/٢ ، وفيات الأعيان : ٤٤٧/١ .

(٢) هو الزهرى أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب المدنى ، أحد الأعلام ، نزل الشام . وروى عن : سهل بن سعد ، وابن عمر ، وجابر ، وأنس ، وغيرهم من الصحابة ، وخلق من التابعين . وعنه : أبو حنيفة ، ومالك ، وعطاء بن أبى رباح ، وعمر بن عبد العزيز ، وابن عيينة ، والليث ، والأوزاعى ، وابن جريج ، وخلق. مات سنة (١٢٤ هـ) .

انظر : وفيات الأعيان : ٤٥١/١ ، النجوم الزاهرة : ٢٩٤/١ ، العبر : ١٥٨/١ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ٢٦٢/٢ ، طبقات الفقهاء ٦٣ ، شذرات الذهب : ١٦٢/١، خلاصة تذهيب الكمال ٣٠٦ ، حلية الأولياء : ٣٦٠/٣ ، تهذيب التهذيب : ٤٤٥/٩ ، تذكرة الحفاظ : ١٠٨/١ .

(٣) هو يحيى بن سعيد القطان التميمى أبو سعيد البصرى الأحول ، الحافظ ، أحد الأئمة . روى عن : جعفر الصادق ، ومالك ، وحميد الطويل ، وخلق . وعنه : أحمد، وابن المدينى ، وخلق . قال أحمد : لم يكن فى زمانه مثله . مات سنة (١٩٨ هـ) .

انظر : تاريخ بغداد : ١٣٥/١٤ ، تذكرة الحفاظ : ٢٩٨/١ ، تهذيب الأسماء : ١٥٤/٢ ، تهذيب التهذيب : ٢١٦/١١ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣٦٣ ، شذرات الذهب: ٣٥٥/١ ، العبر : ٣٢٧/١ .

ما أفتيت حتى شهد لى سبعون ولو نهونى لانتهيت . ومن قوله : ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكن نور يضعه الله تعالى فى القلب .

قال يحيى بن معين (١) : كان مالك من حجج الله تعالى على خلقه إماماً لا يبلغ الحديث إلا صحيحاً ولا يحدث إلا عن ثقاة الناس . وعن الشافعى رضى الله عنه : « إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك » ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد قال عبد الله بن وهب (٢) : « لولا أنى أدركت مالكاً والليث بن سعد لضللت » ، وهو أحد الأئمة الأربعة فى الأمصار الأربعة : سفيان الثورى بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعى بالشام ، وحماد بن زيد (٣) بالبصرة .

---

(١) هو يحيى بن معين بن عون الغطفانى ، مولاهم ، البغدادى ، أحد الأئمة الأعلام . روى عن : ابن عيينة ، وأبى أسامة ، وعبد الرزاق ، وعفان ، وغندر ، وهشيم ، وخلق. وعنه : البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، وعبد الله بن الإمام أحمد ، وهناد ، وابن سعد ، وخلق . كان إماماً ربانياً عالماً حافظاً ثبتاً متقناً ، مات سنة (٢٠٣ هـ) .

انظر : تذكرة الحفاظ : ٢/ ٤٢٩ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣٦٨ ، الرسالة المستطرفة ١٢٩ ، العبر : ١/ ٤١٥ .

(٢) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهرى ، مولاهم أبو محمد أحد الأعلام . روى عن : مالك ، والسفيانين ، وابن جريج ، وخلق . وعنه : أصبغ ، وحرملة ، والربيع ، وخلق . ثقة ، مات سنة (١٩٧ هـ) .

انظر : وفيات الأعيان : ١/ ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة : ٢/ ١٥٥ ، ميزان الاعتدال : ٢/ ٥٢٢ ، العبر : ١/ ٣٢٢ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ١/ ٤٦٣ ، طبقات الفقهاء ١٥٠ ، شذرات الذهب : ١/ ٣٤٧ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ٣٠٤ ، تهذيب التهذيب : ٦/ ٧١، خلاصة تذهيب الكمال ١٨٥ ، الديباج المذهب ١٣٢ .

(٣) هو حماد بن زيد بن درهم الأزدى الجهضمى أبو إسماعيل البصرى الأزرق . روى عن أيوب السختيانى ، وأنس بن سيرين ، ويزيد بن ميسرة ، وثابت البنانى ، ويونس بن عبيد . وعنه : سليمان بن حرب ، وسويد بن سعيد ، وأبو عاصم النبيل ، وابن المبارك، وابن مهدى . ولد سنة (٩٨ هـ) ، ومات سنة (١٧٩ هـ) .

انظر : نكت الهميان ١٤٧ ، العبر : ١/ ٢٧٤ ، شذرات الذهب : ١/ ٢٩٢ ، خلاصة تذهيب الكمال ٨٧ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ٢٢٨ ، طبقات الحفاظ ٩٦ - ٩٧ .

ومن فضائله : ما رواه الترمذى [(١)] من حديث سفيان بن عيينة عن جرير عن أبى الزبير عن أبى صالح [(٢)] ، عن أبى هريرة [(٣)] رضى الله عنهم : « يوشك أن تضرب الناس أكباد الإبل ، فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة » [(٤)] .

كان شديد الكراهة للغيبة . ومن قوله فيها : « كان عندنا بالمدينة قوم لا عيوب لهم فتكلموا فى عيوب الناس ، فصارت لهم عيوب وكان عندنا قوم لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس ، فنسيت عيوبهم » .

جاء مستقبل الزمان مصدقاً للخبر الصحيح النبوى الذى لا ينطق عن الهوى ، فكان سيدنا الإمام مالك رضى الله عنه إمام زمانه .

ارتقت أمانة العلم عنده لدرجة لا تقوى عليها نفوس الكافة ، فنزل منزلاً لم يخرج عنه حتى خرج من الدنيا ، جاءه رجل ليستفتيه فى مسألة ، فقال له : (لا

---

(١) هو أبو عيسى الترمذى محمد بن عيسى بن سورة بن الضحاك السلمى ، صاحب الجامع والعلل . روى عنه : محمد بن المنذر شكر ، والهيثم بن كليب ، وأبو العباس المحبونى ، وخلق . مات سنة (٢٧٩ هـ) .

انظر : تذكرة الحفاظ : ٢/ ٦٣٣ ، تهذيب التهذيب : ٩/ ٣٨٧ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٠٣ ، شذرات الذهب : ٢/ ١٧٤ ، العبر : ٢/ ٦٣٣ ، ميزان الاعتدال : ٣/ ٦٧٨، النجوم الزاهرة : ٣/ ٨٨ ، نكت الهميان ٢٦٤ ، وفيات الأعيان : ١/ ٤٥٧ .

(٢) هو أبو صالح السمان ذكوان الزيات ، المدنى ، مولى جويرية بنت الأحمس الغطفانى ، من أجل الناس وأوثقهم ، مات سنة (١٠١ هـ) .

انظر : تذكرة الحفاظ : ١/ ٨٩ ، خلاصة تذهيب الكمال ٩٦ ، طبقات ابن سعد : ٥/ ٢٢٢ ، العبر : ١/ ١٢١ .

(٣) هو أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى ، حفظ عن النبى ﷺ الكثر، وعن أبى بكر ، وعمر ، وأبى بن كعب . وعنه : سعيد بن المسيب ، وبشير بن نهيك ، وخلق كثير ، وكان من أوعية العلم ، ومن كبار أئمة الفتوى مع الجلالة والعبادة والتواضع، مات سنة (٥٨ هـ) .

انظر : النجوم الزاهرة : ١/ ١٥١ ، العبر : ١/ ٦٢ ، طبقات القراء لابن الجزرى : ١/ ٣٧ ، طبقات القراء للذهبى : ١/ ٤٠ ، أسد الغابة : ٦/ ٣١٨ ، تذكرة الحفاظ : ١/ ٣٢ ، خلاصة تذهيب الكمال ٣٩٧ .

(٤) ورد فى صحيح البخارى ، وسنن أبو داود وابن ماجة .

أحسنها) ، فقال له : (قد ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عن هذا وتقول لى : لا أحسنها ، ماذا أقول لأهلى ؟ قال له : قل لهم : سألت مالكاً فقال لى: لا أحسنها) .

امتحنه الله سبحانه وتعالى على مقدار مبلغ استطاعته ومكانته وأمانته فاستدعاه الخليفة واستفتاه فى أمر فأفتاه بما لم يوافق هواه وغرضه ، فأمر بضربه فضرب ومدت يده حتى خلع كتفه .

ما زال الله سبحانه وتعالى يعلى من قدر مالك رضى الله عنه بعد ذلك الضرب حتى أصبح فى رفعة لا يسمو عليها مقام ، وتجلى عليه مولاه بمظهر العزة حتى كأن تلك السياط حلياً تحلى بها وأفضلية سما قدره بها .

توفى رضى الله عنه فى المدينة فى شهر ربيع سنة تسع وسبعين ومائة ، ودفن بالبقيع ، وكان واليها من قبل الرشيد عبد الله بن زينب .

إن الناظر فى أمر الدين الإسلامى بعين الحقيقة يجد أنه كلما اتسع صاحبه فى وسائله ، وتفرغ لحكمه وسبر حقائقه اتسع فى حرية الفكر ، وأصبح متدرعاً بدرع الصدق والوفاء والأمانة وقبض على زمام الملكات الفاضلة ، وأصبح وليس له هم إلا احترام الحقوق على اختلاف أنواعها ، ولا يستطيع أن يبيح منها إلا ما يحل تناوله فقط ، ولو أن جميع أهل العلم حاسنوا بعضهم بهذه الخصال ونافسوا معاصريهم بهذه الكمالات وجذبوا الناس إلى مذاهبهم وعرفوهم شرف اندراجهم فى هذا النوع ، وكشفوا لهم عن وجوه الحقائق وطالبوهم بإصلاح سرهم ، كما طالبوهم برعاية أجسادهم وعرفوهم طهارة الباطن ، كما فرضوا عليهم نظافة الظاهر لقامت كلمة الدين خير قيام ، وأعتقوا عبيد الغايات والعادات وخلصوا أسراء التقليد ، وأصبح الناس على نور من ربهم عظيم .

لم يخالف الإمام فى فتواه مقام الخلافة إلا وهو متحقق أن هذا العمل فى رضاء الله سبحانه وتعالى ، وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فلو أن كل مسئول امتنع ولم يوافق السائل على هواه لرجع جميع المقترفين لهذا العمل عن عملهم هذا ، ولكن عظمة السلطان وصولته أنست الناس أمر دينهم فأصبحوا

يخالفون الشرائع ليؤلفوا قلوبهم ويدخلوا السرور عليهم بتحسين فعلهم، فجر هذا الأمر إلى أمور فظيعة سيئة حتى أصبح الدين ملعبة عند بعض الملوك ، وأهانوا الشرائع المرعية والفضائل المحمية ، وهذا أمر قد علم الكثير من المسلمين حاله وقدروا ضرره ، فكم جلبت الفتاوى من البلايا والرزايا سواء كان فى المسائل السياسية أو المدنية مما لا حاجة لذكر تفصيله حتى أن أحد سلاطين آل عثمان أوصى بدفن الفتاوى التى أصدرتها له علماء وقته تخلصاً من عواقب ما فيها يوم القيامة يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

* * *

(محمد بن إدريس الشافعى) (*)

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف بن قصى .

ولد بالشام سنة خمسين ومائة ، ثم وصل إلى مكة فسكنها وأخذ يتردد بين الحجاز والعراق ، ثم استوطن مصر واتخذها دار إقامة حتى توفى بها عند بنى الحكم .

روى عن : الإمام مالك بن أنس ، ومسلم بن خالد الزنجى ، وابن عيينة ، وإبراهيم بن سعد ، وفضيل بن عياض ، وعن عمه محمد بن شافع ، وجماعة غيرهم . وروى عنه : ابن حنبل ، والحميدى ، وأبو الطاهر بن البويطى ، والمزنى ، ومحمد بن عبد الحكم ، وجماعة غيرهم .

كان حافظاً حفظ الموطأ فى ليال ، وأخذ العربية من صميم العرب ، ولزم هذيلاً ، وبقى فيهم مدة يرحل برحلتهم وينزل بنزولهم ، ثم رجع إلى مكة وجعل ينشد الأشعار ويذكر الآداب ، ويروى الأخبار وأيام العرب ، فمر به رجل من الزبيديين فقال له : (يا أبا عبد الله ، عزيز علىّ أن لا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه لتسود أهل زمانك به) ، فقال : ومن بقى حتى يقصد ، فقال له : مالك سيد المسلمين ، فوقع فى قلبه ذلك وعمد إلى الموطأ ، فحفظه ورحل إلى مالك ، فأخذ عنه الفقه .

كان مالك يثنى على فهمه وحفظه ووصله بهدية لما رحل عنه ، وكان الشافعى يقول : (مالك معلمى وأستاذى منه تعلمنا ، وما أحد أمنّ علىّ من مالك ، وقد جعلت مالكاً حجة بينى وبين الله سبحانه وتعالى) .

ظهر مذهبه رضى الله عنه فى مصر وكثر مقلدوه فيها ، ثم انتشر بالعراق وخراسان والداغستان وما وراء النهر والبلاد القاصية لا يعرفون حجة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى غير الشافعى ، قاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس فى

(*) سبق له الترجمة والتعليق .

جميع الأمصار ، وعظمت مجالس المناظرات بهم ، ثم أدى ذلك لظهور كتب الخلافيات ، ووصل الأمر إلى رجال من أصحاب المظاهر فى المذهبين ، فكان ما كان من الحرب العوان التى قامت بين أهل المذهبين وعقلاء الأمة الإسلامية تتلافى للآن أمرها ولا تعان عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

نزل الإمام على بنى عبد الحكم بمصر ، فأخذ عنه جماعة من بنى عبد الحكم وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ، ثم انقرض فقه أهل السُّنَّة من مصر بظهور دولة الرافضة (الفاطميين) وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم إلى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فرجع إليهم فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشام ، وعاد إلى أحسن ما كان ونفق سوقه واشتهر منهم محيى الدين النووى ، وابن الرفعة ، وتقى الدين ابن دقيق العيد ، وتقى الدين بن السبكى ، والسراج البلقينى أكبر علماء عصره وغيرهم من أجلة العلماء وأكابر الفضلاء .

* *

(ذكر ثناء العلماء عليه بسبقه فى العلم والفضل)

قال محمد بن عبد الحكم : لزمت الشافعى فما رأيت أبصر منه بأصول العلم والفقه ، كان صاحب سُنَّة وأثر وفضل مع لسان فصيح وعقل رصين صحيح .

قال ابن عيينة : إنه كان أفضل فتيان زمانه ، وكان إذا جاء ابن عيينة أمر من التفسير والفتيا قال : سلوا عنه هذا - أى الشافعى - وكان يقول له مسلم بن خالد الزنجى شيخه وهو شاب فى مقتبل عمره : قد آن لك أن تفتى يا أبا عبد الله وقال يحيى بن سعيد القطان : إنى لأدعو فى صلاتى للشافعى لما أظهر من القول بما صح عن رسول الله ﷺ . وقال أحمد بن حنبل : ما أحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث إلا وللشافعى عليه منة . وقال : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسته ، وكان أفقه الناس فى كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ .

كان الشافعى كالشمس للدنيا والعافية للناس ، وليس منه عوض .

وقال ابن معين لصالح بن أحمد بن حنبل : ما يستحى أبوك يمشى وقد أخذ بركاب الشافعى ، قال صالح : فقلت ذلك لأبى ، فقال : قل له : إن أردت أن تتفقه فخذ بركابه الآخر .

كان حجة فى اللغة وآية فى الأنساب والأخبار . قال ابن هشام : ذاكرته مرة وهو بمصر فى أنساب الرجال ، فقال له الشافعى بعد ساعة : دع هذا ، فإنه لا يذهب حفظه عنا ولا عنك ، ولكن خذ فى أنساب النساء ، فلما أخذ فى ذلك بقى ابن هشام ساكتاً ، وكان يقول : ما ظننت أن الله عَزَّ وجَلَّ خلق خلقاً مثل هذا الإنسان .

وقال النسائى : كان مفرداً فى ثقته وأمانته ، وقد ألف الخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادى كتاب الحجة بالشافعى وأثبته فى الصحيح ، وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « اللَّهُمَّ اهد قريشاً ، فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً ، اللَّهُمَّ كما أذقتهم عذاباً فاذقهم نوالاً » ، فكان وجوده رضى الله عنه مصداق قوله ﷺ .

واتصل به أيام محنته القول بخلق القرآن . ومن كلامه : (كلام الله ليس بمخلوق ، ومن قال : مخلوق فهو كافر) .

* *

(ذكر بعض حكمه رحمه الله تعالى)

من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق ، من حفظ القرآن نبل قدره ، ومن تفقه عظمت قيمته ، ومن حفظ الحديث قويت حجته ، ومن حفظ العربية والشعر رق طبعه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه العلم . قيل للشافعى : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف أصبح من يطلبه ثمان : الله تعالى بالقرآن ، والنبى ﷺ بالسُّنَّة ، والحفظة بما ينطق ، والشيطان بالمعاصى ، والدهر بصروفه ، والنفس بشهواتها ، والعيال بالقوت ، وملك الموت بقبض روحه .

توفى الشافعى فى خلافة المأمون رضى الله عنهما بمصر عند عبد الله بن عبد الحكم وإليه أوصى ، وذلك ليلة الخمس منسلخ رجب سنة أربع ومائتين ، ودفنه بنو عبد الحكم فى قبورهم ، وصلى عليه السرى أمير مصر .

كان رحمه الله خفيف العارضين ، أسمر اللون ، وقد ألف كتاب « الأم » ، وهو من أجل الكتب فى أصول الفقه ، جمع بين صحة المأخذ وبين متانة العبارة، فهو الأم الولود حقيقة لكل حقيقة فى علم الفقه ومعرفة الأحكام .

قال الربيع : كنا جلوساً فى حلقة الشافعى بعد موته بيسير ، فوقف علينا أعرابى فسلم ، ثم قال : أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ قلنا : توفى . قال : رحمه الله ، وبكى بكاء شديداً ثم قال : رحمه الله وغفر له ما كان ، كان والله يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويسد من خصمه واضح المحجة ، ويغسل من العار وجوهاً مسودة ، ويوسع بالرأى أبواباً منسدة ، ثم انصرف .

وهو ثالث الأربعة الأئمة الذين تفتخر بهم جماعة المسلمين بممارستهم للكتاب الكريم ، وتمكن الاستنباط ، وكمال الفقه ، وحسن الصناعة ، وتمام العلم المتفردين بمعرفة أحكام الله سبحانه وتعالى فى المكلفين ، هداهم الله لخدمة العلم وبهم يهدى الله من يشاء إلى الصراط المستقيم .

* * *

(الإمام أحمد بن حنبل بن هلال الشيبانى (*) رضى الله عنه)

هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل المروزى الأصل ، خرجت أمه من مرو حاملاً ، فولدته رحمه الله تعالى سنة أربع وستين ومائة فى ربيع الأول ببغداد ، ولم يربه أبوه لأنه تركه طفلاً ، نشأ ببغداد فى طلب العلم وخدمته، وسافر فى طلب الحديث من شيوخه ، ورحل إلى البلاد ، وروى عن كثير من كبار العلماء والمحدثين ، فدخل مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ، وسمع من سفيان بن عيينة وإبراهيم بن سعد ويحيى القطان وغيرهم.

نشأ عفاً مستقيماً يخاف الله ويخشاه ، فلا يتعدى محارمه أبداً . روى أبو عبدالله قال : كان أحمد بن حنبل معنا فى الكتاب ، وكان الخليفة فرقة ومعه خاصته فيكتبون الكتب إلى منازلهم ، فتبعث النساء إلى المعلم : أن ابعث لنا بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم ، فكان إذا دخل البيوت لا يرفع طرفه أبداً حتى كان الناس تعجب من حسن طريقته وأدبه عند ذكره .

بدأ فى طلب الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ورحل ، فكتب عن علماء كل بلد وأول من كتب عنه الإمام أبو يوسف ، وكان يقول : « أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر » ، واجتهد كثيراً فى نقل الأحاديث الصحيحة ، وبلغ ما نقله منها مقداراً عظيماً جداً فاق حد التصور وأعجب به معاصروه .

كان متأدباً غاية الأدب متواضعاً غاية التواضع ، يرى ذلك عليه من غير تصنع ولا محاباة ، فكان من فرط إجلاله لمشايخه لا يتكلم فى مجالسهم بشىء ، ويجيب من يسأله فى ذلك بأن الإنسان له لسان واحد وأذنان ليسمع أكثر مما يتكلم.

(*) انظر : تاريخ بغداد : ٤/٤١٢ ، تذكرة الحفاظ : ٢/٤٣١ ، تهذيب التهذيب : ١/٧٢ ، حلية الأولياء : ٩/١٦١ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٠ ، الرسالة المستطرفة ١٨ ، شذرات الذهب : ٢/٩٦ ، طبقات الحنابلة : ١/٤ ، طبقات الفقهاء ٩١ ، طبقات المفسرين للداودى : ١/٧٠ ، العبر : ١/٤٣٥ ، الفهرست ٢٢٩ ، مرآة الجنان : ٢/١٣٢ ، النجوم الزاهرة : ٢/٣٠٤ ، وفيات الأعيان : ١/١٧ .

كان وحيداً فى عصره فى الاشتغال بالعلم والحفظ ، كان يصلى العصر ثم يستند قائماً إلى أصل منارة مسجده فتحتاط به الناس يسألونه الحديث وهو يجيبهم ويحدثهم عن ظهر قلبه ، والكل قيام على أرجلهم إلى أن تجب صلاة المغرب لا يفرغ ولا ينتهون .

لم يتزوج إلا بعد الأربعين حتى لا يتشاغل عن العلم بكسب ولا نكاح ، فبلغ من العلم ما أراد ، وكان يقول : كتبنا الحديث من ست وجوه وسبع وجوه ولم نضبطه ، كيف يضبطه من كتبه من وجه واحد .

كأن علم الدنيا كان بين عينيه جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف يقول ما شاء ويمسك ما شاء .

ومن لطائفه : أنه سئل عن رجل حلف بالطلاق أنه لا بد أن يطأ امرأته الليلة، فذهب إليها فوجدها حائضاً فقال : تطلق امرأته ولا يطؤها ، لأن الله قد أباح الطلاق وحرم وطء الحائض .

وكان لا يرى وضع الكتب لمسائله وكلامه ، ولو رأى ذلك لكانت له تصانيف كثيرة ، ولدونت فى أسفار ، ومع ذلك فله المسند صنفه سنة (١٨٠) وهو مائة وعشرون ألف حديث تكلم فيه على الناسخ والمنسوخ والتاريخ والمقدم والمؤخر ، وفسر جوابات القرآن والمناسك الكبير والصغير حتى قل أن تقع مسألة إلا وله فيها نص فى الفروع والأصول ، وربما عدمت فى تلك المسألة نصوص الفقهاء الذين صنفوا وجمعوا .

روى عنه جماعة كثيرة ، منهم : البغوى ، ومسلم ، والبخارى ، وابن أبى الدنيا ، وأحمد بن أبى الحوارى ، وغيرهم . وقد ذكر المؤلفون له مناقب كثيرة جداً تدخل فى باب السعى فى طلب العلم والزهد فى المال ، وذكر محنته وشمائله .

كان إمام المحدثين فى عصره ، وكان من أصحاب الإمام الشافعى ، ولم يزل مصاحباً له إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر . وقال الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل .

دعى رحمه الله إلى القول بخلق القرآن : (تلك الفتنة التى أيقظها أحمد بن

أبى دؤاد ، فعمت خيرة الخلق وأصابتهم ببلاياها) ، فلم يجب عنها بشىء فضرب ضرباً مبرحاً ، ثم حبس وعذب بأنواع العذاب وهو مصر على الامتناع وكان ذلك فى شهر رمضان سنة عشرين ومائتين .

كان حسن الوجه ربعة ، ولم يكن فى آخر عصره مثله فى العلم والورع .

توفى ببغداد سنة إحدى وأربعين ومائتين ، ودفن فى مقبرة باب حرب ، وحضر جنازته من الخلق ما لا يحصى ، وإليه ينسب أحد المذاهب الأربعة الإسلامية ، وتعرف أتباعه بالحنابلة .

ومقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته فى معاضدة الرواية والأخبار بعضها لبعض ، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم أكثر الناس حفظاً للسُّنَّة ورواية الحديث الشريف .

وكان كثيراً ما يتمثل بقول الصديق رضى الله عنه إذا مدحه مادح : (اللهم أنت أعلم منى بنفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون) .

* * *

(نبذة تاريخية)

(ماذا كانت مصر فى هذه الأيام أزمان انتقال الدولة من الأمويين للعباسيين ، وأزمان اضمحلال الدولة العباسية) .

كانت على غير انتظام فى حالها ولا ثبات فى أمرها ، لأنها كانت تقوم وتقعد تبعاً لأهواء الولاة والعمال لعدم وجود التربية القومية فيها ، وضعف الرأى العام بين بنيها ، وكونها فى الوجود فى منزلة غريبة من السذاجة التى تلقتها عن الأسلاف ، منزلة تبعد عن منازع البداوة بعدها عن مقاصد الديانة ، فهى لا أمة تحمى ذمارها بالسيف ولا حضرية تعيش تحت ظل الشريعة أو القانون ، وإنما العامل الوحيد فيها مقاصد الحكام وهى عندها أعظم من كل إرادة ، لأنها كانت لا تطيق مقاومتها أبداً .

كان المصطنعون يتفانون فى تنفيذ إرادة الحكام مهما كانت حتى تذبذبت الأمة وانطمس منها مكان نور التفكر والتدبير ، وأصبحت مسخرة ترضى بالخضوع للمتغلبين عليها من الولاة الذين لا يزرعون فيها إلا ما تنزع إليه طبائعهم ، ولا يوصلون إليها من جاه الخلافة وعزها وأدبها وارتقائها إلا بمقدار رقة مستشفّهم ، ولذلك لم يصبها من الخيرات فى عهد الدولة الأموية ، ولا من المنافع العمومية فى أزمان الدولة العباسية بمقدار ما كان ينتظر ويظن ، من خلافة كخلافة الوليد بن عبد الملك المروانى الذى وضع يسراه على الغرب ويمناه على الشرق ، أو خلافة كخلافة أبى عبد الله المأمون العباسى الذى أحيى معالم العلوم .

كأنما هى فى جو آخر مخالفة للناس فى العوائد والأحوال مع ما طبعت عليه من السكون والدعة قانعة بما فيها من الثمرات مؤثرة الراحة على المتاعب لا تتعدى مبلغ قوتها وعوائد من قبلها .

دخلت عليها سنة (٢٥٦) ، وفيها أحمد بن طولون عاملاً للخلافة العباسية فوسوس له شيطانه حتى نادى بالاستقلال وسطا على الخلافة بسيفها ، وحارب الخلافة بجيوشه التى جمعها من أهالى مصر وغيرها ، واستماتوا فى هذه الحرب حتى عجز المعتضد عنه ووقع الصلح بينهما .

وقد تسامع الناس بالذى جرى من بعض أهل مصر ومن عاملها ، فكانت هذه الحادثة من أشأم الحوادث وأقبحها أثراً وموقعاً فى أمر الدين وجماعة المسلمين مزقت الخلافة العباسية كل ممزق ، وفتحت عليها باب التجزى والتبديد ، وحذا حذوه العمال ، فاستقلت جهات بخارى ، وصارت تدعى « المملكة الشرقية » وجهات أفغانستان وهم نحو من ستة ملايين أو ثمانية من سكان الجبال والبوادى جلاد شداد ، وصارت « المملكة الغزنوية » ، ثم صارت « الدولة السلجوقية » وتبعهم « سيف الدولة بن حمدان » بالموصل هذا فى آسيا ، واستقل فى أفريقيا بنو الأغلب وهم الذين كان ملكهم من حدود مصر إلى حدود الغرب الأقصى ، واتبعوا مسلك ابن طولون حذوك القذة بالقذة [1] ، فأصبحت الخلافة العباسية مشذبة الأطراف مقطوعة الأوصال ، مفتوح عليها باب لا يسد ، وكان هذا من أهم انحطاطها وأكبر الدواعى التى أطمعت أخصامها فيها .

تنزع فى بعض الأحايين نفوس بعض الولاة أو العمال الشريرة لمثل هذا العمل (الاستقلال) دون أن تكون الأمة والبلاد مستعدة لما عساه أن يطرقها من الشدائد من بعده ولا قائمة بما ينبغى لها أن تقوم به من العوائد التى تحفظ كيانها بعد هذا التفرد .

الاستقلال هو عبارة عن قيام دولة ، فإن وقع على غير طبيعة الملك تهدم وهلك صاحبه ، لأن المستقل يلزمه أن يكون ظاهراً حتى على ذات الشوكة التى يريد أن يفصم عنها وينادى باستقلاله دونها ، لذلك تحاماه الكثير من أرباب الأمر وأصحاب الملك والسلطان مخافة أن ينقلب الأمر فتقع البلاد والعباد فى شر غير منتظر ، نذكر منهم الأمير عبد الرحمن الداخل والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، دخل الأول بلاد الأندلس وتناول الملك بقوة شكيمة ومضاء عزم ، وبعد أن انقاد له الأمر سمى نفسه بالأمير ، ولم يدع « بأمير المؤمنين » لا هو ولا أحد من بنيه لحد الثامن تأدباً مع الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب .

وملك الثانى مصر فاتحاً وخلع العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، ثم جدد الدعوة والخطب للعباسيين مع انقطاعها من مصر قروناً وأعواماً .

---

(١) القذة بالضم : ريش السهم ، جمعه : قذذ .

كان ذلك الاستقلال لحكومة مصر على غير طبيعة الملك ، فلم يكسبها الرقى والفلاح والنجاح الذى أصاب غيرها منه ، كأن الأمة لم تستعد له بعد ، ولم تختمر فيها مادة المعاونة مع صاحب الملك بالرأى والمفاوضة فيه ، ومعرفة مهمات القطر العامة والخاصة ، فتركت البلاد لمباشرة السلطان بغير مشاركة له فى أى صنف من أحوال ملكة شأن الكثير من الممالك الإسلامية ، فلما انصرفت ولاية أحمد بن طولون عنهم تكشفت نفوسهم غير متهيئة لعمل فاستسلموا لمن بعد ، وهكذا كان أمرهم مع كل طارق ورضخوا لكل حاكم ، ولو لم يكن بينه وبين الحكومة معنى مطلقاً كالدولة الأخشيدية وكدولة المماليك وأشباه ذلك ، ثم صاروا ملعبة فى يد الفاطميين الذين سنوا لهم سنناً تعدت ضروب المحال كما هو معلوم .

يضحك الرجل المجرب إذا كان بعد هذا يرى فى بعض الأندية أفواهاً تتلمظ وأنوفاً تشمخ بما يقرب من هذا المثال يغترون بالمرائى والظواهر التى بهرجت بها الأعداء ليقطعوا الوصلة بألاعيب السياسة وأساليب المكر والدهاء ، ﴿ **ومن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾ ، على أن فى التاريخ شواهد محفوظة وأمثال مضروبة تكفى الناظر لو نظر ، وعلم ما هو فيه من نعمة الارتباط لو قام بتنميته وسعادة الوحدة والائتلاف لو أنه يرعاها ، وأنها لو تمت لكانت من أجل النعم وأسبغها .

سرى سوء الرأى فى تلك الأيام فى الأمة المصرية حتى عجزت فى ذلك الوقت عن إقامة نظامها فى خاصة نفسها ونظام عائلاتها فى ضرورة معاشها ومهنها ، فما الظن بها فى سياسة النوع الإنسانى ، وأنى لها بإمضاء الأحكام وإصلاح السابلة وحمل الناس على مصالحهم وما تعمهم به الفائدة فى المعاش والمعاملات ، نزلت مصر فى الأخلاق منزلة يظن الباحث فيها أنها محجوبة عن الحق لأنها وهنت وسهل ابتلاعها لضعفها عن النظر والتخلق بأدب الدين ، وأصبحت مركزاً للقلاقل وتعكير الفكر وتمكنت أغلال الاستعباد فى أعناق أهلها حتى قبلوا المذاهب العديدة التى قامت بها أصحابها فيما بينهم ، وكانت من أكبر أسباب التفريق .

انظر لما حكم به عليها ذلك الفاطمى « المعز لدين الله » على الغيب ، وهو

فى أقصى المغرب من الضعف بسبب الفجور الذى كانت فيه باستطلاع لطيف ، وهو مفارقة أدب الدين الذى تتفجر منه ينابيع النخوة وتنشأ عنه القوة العاملة .

قال المقريزى رحمه الله فى خططه عند ذكر الخلفاء الفاطميين : إن أم الأمراء (والمراد بها أم الخلفاء الفاطميين يعنى والدة المعز) ، وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر مع وكيلها ، وكأن ذلك كان على سبيل التحسس لمعرفة أخلاق البلاد والعباد ، فعرضها بألف دينار فحضرت إليه فى بعض الأيام شابة على حمار وساومته الصبية بستمائة دينار ، فإذا هى ابنة الأخشيد سلطان مصر ، بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حباً فاشترتها لتستمتع بها ، فعاد الوكيل إلى المعز وأخبره بما وقع فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل ، فقص عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية إلى آخره ، فقال المعز : انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شىء ، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك تخرج بنفسها وتشترى جارية تتمتع بها ، وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فقالوا : السمع والطاعة ، ونهضوا وكان الفتح ، ثم توالت عليها الخلفاء الفاطميون حتى كانت مدة الحاكم فوقع منه ما لم يكن لأحد فى حساب .

انظر لهذه الحادثة وسلط عليها قوة الفكر وتناولها بسطوة العقل ، واستعمل فيها حذق أصحاب الاستنباط والاختبار تعلم وتتحقق أنه لا سبب لهذا الاختلال الذى نفث علينا سموم الدسائس وأثار فينا الفتن والوهن ، ومكن الأراجيف من العقول ، وفتح مجال الشر وأقام معترك المطامع ، وجعل البلاد مهبط البلاء إلا مفارقة أدب الدين ، والذهاب فى أثر التمدن الوضعى المبنى على القواعد الجديدة التى لا رابطة لها ولا وصلة بينها وبين عفة الأديان ، وفى هذا ذهاب الغيرة وضعف النهضة الشريفة الإنسانية ، فإذا قيس حاضر على ماض فليعلم أن تمكن الأعداء من البلاد وضعف النفوس عن مقاومتهم لم يكن له سبب إلا هذا، لأن الإنسان لا يذود غيره عن حوضه بسلاحه إلا وهو عالم بشرف ما فى ذلك الحوض من مال ونفس وعرض ، والخالى من الفضيلة والفضل معذور بالهجوم على ما لا يعلم والفرار من قرار الكمال حتى يحتجب عن الحق ، لأنه لا يدرى كيف يكون فى رقى وصلاح حال ، ولا إلى أى طريق يذهب ، فاللهم اهدنا سواء السبيل .

ألمعنا فى النبذة السياسية التى مضت إلى ما كان من حال مصر وما جرى من دخول جوهر القائد بعسكر المعز لدين الله فيها بسبب الاختلال والفجور الذى ألم بأهلها وما كان من تأسيس الخلافة الفاطمية فى هذا القطر .

ومهما يكن أمر هذه الخلافة فى نظر كثير من المؤرخين وما تكلموا من إثبات نسبهم أو نفيه عن أهل البيت كما سيأتى ، فقد كان لخلفائها من الدولة والسلطان ما قاسموا به بنى العباس فى ممالك الإسلام ، بل كادوا يلحون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم ، واستمرت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة فتحوا فيها البلاد واستخدموا العباد ، واختطوا مثل مدينة القاهرة المدينة الفخيمة التى هى من وضع أول خلفائهم الخليفة (المعز لدين الله) ، ولذلك فنحن ذاكروه من بين خلفاء هذه الخلافة الفاطمية لهذه العلقة ، ولما اتصف به أيضاً من الخلال والخصال الغريبة والحزم والعزم .

* * *

(المعز لدين الله) (*)

هو المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدى أبى محمد عبيد الله العلوى الحسينى ، ولد بالمهدية من أفريقيا حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة .

تولى المعز لدين الله الخلافة بالمغرب ، وكان ممن يهتف باسم مصر والاستيلاء عليها ، وله رسل تستطلع له خبرها كما قلنا ، وقد وافق ذلك موت كافور الإخشيدى (صاحب مصر) ، فاختلفت فيها القلوب ووقع الغلاء وتتابعت الشدائد وحصل الأدبار ، وعجز رجال الدولة عن إدارة الأمور ، واختل حال الأقاليم المصرية وبلّغ له تفصيل هذه الأحوال السيئة وهو بأفريقيا من تلك العيون التى كان أذكاها فى طلب خفياتها ، فسير المعز القائد « جوهر » غلام والده المنصور فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فى جيش كثيف للاستيلاء عليها ، فلما بلغ من فيها من عسكر الإخشيد أمره واتصل خبر مسيره بهم هربوا عنها جميعهم قبل وصوله ، فدخلها واستوطن رحابها آمناً مطمئناً ، واختط القاهرة بقصرها ، واستقدم العزيز بالله من الغرب فقدمها فى شعبان وأقيمت له الدعوة فى الجامع العتيق فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين ، وأذن فيه « بحىّ على خير العمل »(١) وجهر فى الصلاة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » (١) ، وهو أول ما أذن كذلك بمصر .

ابتدأت هذه الدولة « العلوية » بأفريقيا بدعوة أبى محمد عبيد الله أول من ولى منهم نحواً من سنة سبع وتسعين ومائتين ، ودخلت جيوشها « مصر » سنة ثمان

(*) انظر : المؤنس ٦٣ - ٦٦ ، وفيات الأعيان : ٥/ ٢٢٤ - ٢٢٨ ، تاريخ مصر لابن ميسر ١٥٩ - ١٦٨ ، المنتظم : ٧/ ٨٢ - ٨٣ ، مرآة الجنان : ٢/٣٨٣ - ٣٨٥ ، كنز الدرر: ١/ ٨٧ ، البداية والنهاية : ١٠/٢٧٦ - ٢٧٧ ، البيان المعرب : ١/ ٢٢٩ ، تاريخ ابن خلدون : ٤/ ٤٥ - ٥٢ ، تتمة المختصر : ١/ ٤٤٩ .

(١) هما من رسوم الشيعة وشعائر مذهبهم .

وخمسين وثلاثمائة ، وانقرضت فيها سنة سبع وستين وخمسمائة على يد « صلاح الدين يوسف بن أيوب » ، فمدة ملكهم مصر مائتا سنة وتسع سنين ، وقد اتسعت أكناف مملكة هذه الخلافة وأقيمت الدعوة لصاحبها بالمغرب ومصر والشام، وبعض أعمال العراق ، وطالت وتطاولت حتى اتصلت بالمواطن المطهرة فملكوا مقام إبراهيم عليه السلام ومصلاه ، وموطن الرسول ﷺ ، ومدفنه وموقف الحجيج ، ومهبط الملائكة .

كان المعز عالماً فاضلاً جواداً حسن السيرة منصفاً للرعية منصتاً لطلباتها ، فلما قدم مصر ساس الأمور ودبر الأحوال ، ولم يأل جهداً فى الإصلاح ، فصلح حال مصر عما كانت عليه ، وزهت بالقاهرة وازينت بقصره فيها ، وتجملت بما ترتب فيها من الدواوين والمصالح ومواضع السكنى اللائقة بالخلافة وعظمتها .

اتسع نطاق العمارة فى أيامه ، فالقاهرة مقره برجاله وعسكره وعليها سياج من جلال ، والفسطاط بعظمته محل تصدير وشحن الأرزاق والبضائع الصادرة والواردة ، ومحل سكنى الأعيان وأرباب الثروة ورجال العلوم والصنائع ، وكل ما يلزم ويليق بحال هذه الحضارة والعمران .

دخل بلاد مصر سائح عظيم من الفرس يعرف بالناصرى خسرو ، وألف فى سفره رحلة سماها « سفر نامة » يقول فيها : إنه لوصف ما فى مصر من آثار السعادة والثروة لكذبه الفرس ، وكيف يصف مدينة قل أن يوجد لها فى عهدها شبيه ، لها خمسة أبواب : كل باب آية فى ضخامته وفخامته وهندامه يعجز الحاسب فى تقويم نظامه ، وأغلب البيوت والمنازل شاهقة متقنة الصنعة تشبه القلاع ، يتوهم الناظر إليها من حسن نظامها أنها مبنية بأحجار ثمينة والمساجد والوكائل والحمامات والدكاكين مما يعد بالألوف المؤلفة . ا هـ .

والذى يرى بعينه الآثار الباقية يصدق تلك الأخبار الماضية والواقف على تنظيم قصر المعز وما كان فيه من الخزائن للجواهر والسلاح والكتب يعلم مقدار ثروة الدولة وقوة هذه الخلافة ونفوذ بصر المعز وشدة إدراكه .

كان هذا القصر كعبة فضل يحج إليها القصاد والمعز فيه يأمر وينهى بين مظاهر قوة السيف برجاله وأمرائه ، ومعالم الفضل بشيوخه وعلمائه .

يطول بنا الكلام لو أردنا استقصاء رسوم الملك وأبهة الخلافة ولوازم القصر وملحقاته من الحلى والزينة والأمتعة والفرش والثياب والذخائر واحتياجات العسكر البرية والبحرية من سلاح وبنود وخيام ، وما يتجمل به الخليفة وخواصه وسائر رجاله وأتباعه ، وما ينعم به من النفائس الجليلة والمهمات العظيمة البالغة فى العظم والكثرة حداً لا تبلغه العبارة وخزانة الكتب التى اشتملت بحكايات كثير من المؤرخين (تحاكى قوة الإجماع) على ألف ألف وستمائة ألف كتاب ، وفيها من غرائب الدهر وعجائب الزمان ما لا يحصى . قال المقريزى : دخل هذه المكتبة أحد السواح فرأى فيها مقطعاً من الحرير الأزرق غريب الصنعة ، فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها (أشبه بجغرافيا) وجميع المواطن المقدسة مبينة للناظر ، مكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب وغيرها بالفضة والحرير ، فقال : يكفينى من عجائبك هذا ومن جنس هذه الأعجوبة الخيمة التى فاقت جميع المضارب والخيام المسماة بـ « المدورة » ، كانت تضرب فى المحافل والرسميات تقام على فرد عمود ودائرتها خمسمائة ذراع وخرقها وحبالها وعدتها تحمل على مائة جمل ، وقد صور فى رفرفها صورة كل حيوان فى الأرض . فالقارئ يجرى الغائب من هذه النفائس على ما عرف ويقيسها على ما شهد فيتعرف ما كان عليه القوم من الرفاه.

كان هؤلاء الخلفاء ولعين بعمارة المساجد وحسبك الأزهر الأزهر والمقام الأنور والمصلى الأطهر الذى جعله الله مجتلى العلم والتعليم ، وخصه بلطفه وكرمه أن يكون موضع الإرشاد لسُنَّة نبيه الكريم ودينه القويم ، هذا المسجد أول مسجد أسس بالقاهرة « لو كان ما اشتمل عليه من المنافع والمرافق حصل لنا بالسماع وهو غير واقع تحت نظر كل واحد منا بالفعل لعددناه أعجوبة الزمان » مأوى العلم والعلماء ، وموطن الفقه والفقهاء ، وكل واحد من المشتغلين فيه له ما يكفيه من الرزق الفائض على قدره ومقداره ، والتعليم فيه مباح بأنواعه والأروقة تأوى إليها طلبة العلم الغرباء ، فلا يلحظه النظر إلا وهو معمور بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم كالفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ ، فالداخل فيه يجد من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده فى غيره ، ثم لا تزال عمارته تزداد وشهرته تتعاظم حتى قصدته الناس

من الآفاق ، فترى فيه خلقاً من جميع بلاد الإسلام تقصده لتعلم العلوم الشرعية والعقلية والنقلية من دروسه الدائمة المتصدر لقراءتها جهابذة العلماء والمحدثين ما بين مؤلف ومدرس ، وفيه الألوف المؤلفة من المجاورين من الطوائف المختلفة كأهل الحجاز واليمن والهند والسند والسودان والجاوه وبغداد والمغرب والشام والأتراك والأكراد ، وغيرهم من أهل مصر من جنوبها وشمالها فهو أشهر بقعة بعد المساجد الثلاثة ، وياله من مدرسة كبرى وبقعة نافعة يزول بها الجهل ويخلد فيها العلم ، وتتأدب بواسطتها النفوس ، وتتسع القرائح ، وتتنبه الفطن ، وتروق الأفكار ، وتتعين الآداب ، وتظهر الأسرار ، ويكتسب الشرف ، ويعظم القدر ، لو كانت تلك الشموس والأقمار التى تشرق فى أفقه غير محجوبة بسحب التقليد القديم خارجة عن مداراتها الأولى متأملة إلى درجة إحياء المعارف والعلوم ورونقها فى غير هذه البلاد ، غير ناظرة إليها نظر المستنكف آخذة من هذا الجديد بما حسن ولطف مما لا يمس عقيدة ولا يخالف ديناً ، إذاً لأصبحت رحابه قبلة لكل طالب وكعبة لكل قاصد ، بل يكاد الإنسان يحلف غير حانث أن الأزهر وحده كاف لحاجة البلاد بجميع أوجهها ، فهو مرضعة العلوم ، وأقرب مورد يمكن أن يستقى بمعارفه القطر ، ويظهر لكل إنسان براعة أهل هذه البلاد ، ولكن :

ما يشا ربك يفعل قادر ... جل عن كل مقال واعتراض
قد تجمعنا على غير هدى ... وتفرقنا على غير تراض
وتقارضنا شهادات التقى ... ثم صرنا لزوال وانقراض
واستعارت صحة أجسامنا ... واستعانت بمودات مراض

(عود) : كان للمساجد فى أيامهم رسوم وأحباس ، ولها ديوان مفرد وقضاة وعلماء تتفقد حالتها وهم أول من أقام الدرس بمعلوم ، ثم فى مدة العزيز عمل الوزير بن كلس مجلساً فى داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل ، وكان يقرأ فيه فقه على مذهب الفاطمية .

كان لهم التفات غريب لملاحظة أمر المواسم والأعياد على طول السنة ، ولهم فيها من البر والخير والصدقات والإحسان فى الأيام التى يعينونها والليالى التى يبينونها ، ثم تطرق الخلل إلى سياستهم ، وكأنما كان ذلك لتعمقهم فى الرافضية

أو لإلحاد بعضهم (كالحاكم) ، فدفع ذلك فى دعوتهم ، وجاء الطعن فى منتسبهم متمماً لذلك ، فتغيرت تلك الأحوال بالحوادث التى توالت فى أيامهم الأخيرة تارة بالصلاح وتارة بالفساد إلى أن ألحت الحوادث وتوالت المحن ، فتغيرت تلك الوجوه الحسان ، وأزالت معالم الحسن والإحسان ، وبدلت رونقها من الجمال واعتاضت عنها بالأطلال والتلال . ومن يتأمل مدة كل خليفة منهم وأعماله يرى أن همة أغلبهم كانت متجهة إلى اتساع دائرة العمارة واليسار ، وبسبب ذلك يصح للمؤرخ أن يعتبر القاهرة فى مدتهم مترقية جداً فى التجارة والصنائع والمعارف والعلوم التى لم تكن لها من قبل ولا حصلت لها من بعد والمبانى الضخمة المشاهدة التى لا تقوم إلا بالأموال الجمة والتقدم فى صناعتى البناء والتصوير كما تراه فيما بقى من ذلك من الأبواب : كزويلة ، والفتوح ، والنصر ، ومن المساجد : كالحاكم ، والأنور ، يدل على علو قدرهم ورفعة هممهم وسعتهم فى دائرة السخاء والكرم ، وكذلك كانوا فى مراكبهم ومواكبهم واحتفالاتهم فى مواسمهم مما لو أراد الإنسان معرفته يجده فى مظانه من كتب التاريخ .

ثم زالت دولتهم على يد آخر خلفائها العاضد بالحوادث التى وقعت ، وأدت لقدوم السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى هذه البلاد ، لإطفاء الفتن التى دهمتها فأطفأها ، وما عاد إلى البلاد الشامية حتى هاجمها العساكر الصليبية ، فاضطر لقدومه لمحاربتها ، وكان ذلك ، ثم وجد فى حال البلاد اختلالاً لا يسكن إلا إذا سهر عليه الإنسان بالتدبير المقرون بالإصابة وحسن الرأى المعروف بالإجابة ، وكأن البلاد سئمت ما هى فيه من المصائب المتوالية ، فلم يلق فى نزع يد العاضد من الخلافة وإعادة الدعوة للعباسيين أقل معارض وممانعة ، ففعل وتولى حكم البلاد بنفسه :

وقد انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنهـــا وكأنهـم أحـــلام

تغيرت بتغير الدولة كل الأحوال حتى فى المأكل والمشرب ، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

هذه الخلافة طعن فيها أغلب المؤرخين وتكلم الكثير [1] فى نسب القائمين بها

(١) مثل شيخ النظار أبى بكر الباقلانى .

رضى الله تعالى عنهم ، وادعوا أنهم معروفين باليهودية (نعوذ بالله من هذه المقالة) ، حتى عمل فى أيام الإمام القادر العباسى محضراً يتضمن القدح فى هذا النسب ، وشهد فيه من شهد من أعيان العلويين خوفاً وتقية ، وغيرهم مجاراة وتزلفاً ، وزعم الأمير عبد العزيز صاحب تاريخ أفريقية أن أصحاب هذه الدعوى من بقايا اليهود الذين أسلموا فى صدر الإسلام نفاقاً ، وما زالوا يتربصون الشر لجماعة المسلمين قصاصاً لما وقع لأسلافهم من تسفيه أحلامهم ، فقامت جماعة منهم فى آخر خلافة الإمام علىّ رضى الله عنه وأخذوا فى وضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة العقول فى الدين ، وآخرون أرادوا استئصال الأمر بالقوة ومنهم هؤلاء .

والذى عليه أهل التحقيق أن نفى نسبهم عن نسب آل البيت مجعول بأحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفاً إليهم (كما هى العادة من القدح فيمن ناصبهم تفنناً فى الشمات بعدوهم) بواسطة علماء السوء لما توفرت شيعتهم وانتشروا فى القاصية بدعوتهم ، وما زالوا كذلك والخلفاء قانعون بهذا السبب حتى قاسموهم الملك وشاطروهم السلطان ، وهذا مرض غريب وداء عجيب يصيب الكثير من الناس ، ويقع فى الأفراد كما يقع فى الدول ، فتراهم يقنعون بتصغير عدوهم وامتهانه ، وهم فى عماء عما يدبره لهم من المكايد ، ثم يزيد الحال ويتسع فتراهم يحسنون على الشاتم ويغدقون على الطاعن ، ويكادون يسجلون هذا البهرج الزائف الذى تريد أرباب الأغراض وسماسرة البغى والباطل ترويجه لهم وكله فرية وزعم ، وتبلغ بهم السذاجة إلى أنهم يشتشفون بهذا الباطل ويسكتون عما يقع فى ملكهم من النقص وفى سطوتهم من الابتزاز .

باد الكثير من دول الإسلام وانتقصت أطراف ممالك كثيرة بهذا السبب ، وهو تصغير الأعداء فى نظر أولياء الأمور والاستهانة بهم ، والتهويل الشديد باستعظام شوكة صاحب الدولة والتعظيم له ، حتى يظن بعض السذج منهم أن وجود عدوه فى دار الحياة إنما هو استبقاء منه عليه وكرامة وتحنن ، وإلا فحياته فى قبضة يده ، ثم لا تمر عليهما الليالى وتتداول الأيام حتى يصبح والأمر ذو بال وعدوه قد أفسد عليه حاله ويتحقق أنه كان غارقاً فى بحار الخديعة ، وأنه أصبح بين أمرين : إما

خوض المنايا لهذا العدو العنيد ، أو التجاوز له عن الأرض التى ظهر بعصيانه عليها وليته يقنع .

بهذا ذهب ما ذهب من فتوحات الأمويين وأملاك العباسيين وبلاد وأراضى الدولة العلية العثمانية من الروملى والأناضول وغيرهما ، وبهذا السبب أيضاً ذهب السودان المصرى ، وتجسمت فى هذا القطر فتنته الأخيرة .

سمعت ممن أثق به أن كل تلغراف كان يرد لأولياء الأمر من حكام السودان حال الفتنة مبدوءاً فى أوله بقوله : (بنفوس ولى النعم لا يكن هناك ما يكدر الخاطر ، وإنما .... إلخ) وما زال الحال كذلك حتى جاء تلغراف حصار الخرطوم مبدوءاً بهذه المقالة أيضاً ، فليت الناس يصرفون بعض الهمم على أمثال هذه الغوغاء فى أوائل ظهورها ويتركون الغش فتكفيهم مؤنة القتال والجدال فى أخرياتها خصوصاً فى هذا الوقت الذى ينبغى أن يكون للإنسان فيه أربع عيون لكثرة الدسائس وازدياد الأعداء الطاعنين على ملة الإسلام الناقمين عليها ، وعلى القائمين بأمورها ، وليس ببعيد ذلك النقد على من يكون ذا بصيرة ثاقبة ، لأن أحوال أولئك المنافقين تتبدى ظاهره للعيون الصادقة :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة　　وإن خالها تخفى على الناس تعلم ا هـ

(تنبيه) : إلى هنا انتهى الكلام على الخلافة فى المشرق ما بين الشام وبغداد ومصر ، وسنبدأ بالكلام على الخلافة فى المغرب مبتدئين بخلافة عبد الرحمن الداخل .

❋　❋

عرف القراء مما كتبناه أنه لما نزل ببنى أمية ما نزل بالمشرق وغلبهم الدهر على أمرهم مثل غيرهم من ساسة الدول وسلاطين الزمان ، وقتل آخر خلفائهم مروان ابن محمد بن الحكم طلب بنو أمية بطن الأرض بعد ظهرها والدهر حسود لمن يسود ، ولكل هبوب ركود ، وكان ممن أفلت عبد الرحمن بن معاوية ، خرج من الشام سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وظل سائراً فى أفريقيا ينتقل من مكان إلى مكان حتى وصل الأندلس بعد ست سنوات ودخلها سنة تسع وثلاثين ومائة ، وشيد فيها دولة أموية بجده واجتهاده الملازم لهما التوفيق والسعود ، وأصبح رأس

الدولة بعد ما كان فيه من قنوط الهارب ويأس المطلوب من عدوه القادر ، وارتقى فى المغرب لمقام جدد فيه ما طمسه الزمان لبنى مروان فى المشرق من الملك العظيم والسلطان العزيز، وأحيا ما اندرس من معالم الخلافة، وجدد ما نسى من اسمها.

لذلك جعلنا اسمه الكريم مفتتح الخلافة الأموية بالأندلس بعد أن فرغنا من ذكر من يسر الله ذكر أسمائهم من خلفاء الدولة الإسلامية ببغداد .

* * *

(عبد الرحمن بن معاوية) (*)

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (المعروف بالداخل لقب بذلك لأنه أول داخل من ملوك بنى مروان إلى الأندلس ، وهو رأس الدولة الأموية الأندلسية) ، كان شجاعاً هماماً كريماً حليماً ذا حزم وعزم ، أصهب خفيف العارض بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم .

كانت عزمات هذا الخليفة تجعل قومه يتحينون فيه ملكاً ، ويرون فيه علاماته : آية من آيات الله تعالى أن يقطع هذا الخليفة البر والبحر ، ويقيم ملكاً أدبر ، ويركب من الأخطار ما يركب ، ويقصد الأندلس من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار ، فيغلب أهلها على أمرهم ، ويتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم ، وينقاد له الأمر ويجرى على اختياره ثم يورثه عقبه ، آية من آيات الله أنه مع هذا الملك الضخم الذى أتيح له والدولة المتسعة التى كان فيها لا يسمى نفسه بأمير المؤمنين تأدباً مع الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب ، وتبقى هذه التسمية إلى الخليفة الثامن من بنى أمية بالأندلس حتى حدث من ضعف خلفاء بنى العباس ما حدث ووقعت غلبة الأعاجم . انظر لهذا الجد والاجتهاد ، وتأمل لهذا الميل بارتباط كلمة الدين والرغبة فى عدم قطع دعوة آل العباس مما أصبحت فيه جماعة المسلمين من الانقطاع :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

أفلت هذا الخليفة وخلص إلى المغرب ، واجتمع بموالى المروانيين وأشياعهم ، وبثوا له دعوة ونشروا له ذكراً ، ووافق قدومه انكشاف يوسف بن عبد الرحمن الفهرى من عسكره (بسبب ما كان من الأحن بين اليمنية والمضرية) ، ولم يبق معه من الجيوش ما يلقى به الأمير عبد الرحمن ، فانهزم فى ظاهر قرطبة ، ثم لجأ إلى غرناطة فتبعه الأمير وناجزه الحرب ورغب فى الصلح ، فعقد له على أن

(*) انظر : الحلة السيراء ، فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، الكامل فى التاريخ ، المقتبس ، الصلة لابن بشكوال .

يسكن قرطبة وكان ذلك ، ثم أدرك الأمير عبد الرحمن بالأندلس (عبد الملك بن عمر المروانى) وكان بمصر ، فلما دخلت المسودة أرضها خرج يؤم الأندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة ، فلما وصلها عقد له الأمير عبد الرحمن على أشبيلية .

ثم نقض يوسف بن عبد الرحمن عهده الذى عاهد به ونكث ، وخرج ، فسير الأمير للقائه (عبد الملك بن عمر المروانى) المذكور ، فلما تناجزا كانت الدائرة على يوسف ، ثم اغتاله أحد أصحابه ، وتقدم بقتله إلى الأمير ، واستقام الأمر واستقر بقرطبة ، وثبت قدم الأمير عبد الرحمن فى الملك .

أسس هذا الأمير بمفرده الدولة التى بقيت زاهية إلى ما بعد المائة الرابعة ، شاد فيها من معالم الدين والدنيا ما لا يدرك لغيره شاد فيها جامع قرطبة الذى أنفق فيه ثمانين ألف دينار ، ومات قبل تمامه وبنى مساجد أخرى ، وصير لبنى أمية ملكاً ضخماً له من العز السامى العماد ما بلغ غاية الآباد بالجد والاجتهاد ، وأقام لهم دولة متسعة كانت أنبل دول الإسلام وأنكاها فى العدو ، وبلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه .

حارب « الأزفونش » والبورتغال ، وخاطب فارلو ملك الأفرنج وكان صعب المراس ، فما زال به حتى أوجبه إلى المداراة والموادعة بالسلم ، وجعل فى هذا الثغر القاصى (ثغر الأندلس) من حلية الملك ما أرهف به سيف عزه بسلطانه ، وحنك أهله بالسيرة الملوكية وأخذهم بالآداب السلطانية فأكسبهم المروءة ، وأقامهم على الطريقة المثلى ، ثم دون الدواوين ، وجند الأجناد ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وأقام للملك آلة وللسلطان عدة اعترف بعظمتها أكابر الملوك حتى حذروا جانبه وتحاموا حوزته ، وما زال يمازج فى معاملة الملوك التى تجاوره بالعنف مرة وباللطف أخرى حتى دانت له البلاد واستقل له الأمر فيها ، وظهر له ظاهرها وخافيها ، وأدركت أعداؤه ما هو عليه من عظيم القوة مآلاً وحالاً ، وعلمت أن لله رجالاً .

رفعت الأمير عبد الرحمن (قوة الفضيلة ، وصدق الحس ، وبعد الغور ، وسعة الإحاطة) حتى أن مناظره الإمام أبا جعفر المنصور كان يسميه « صقر قرش» وقد عرف له حقه وعدله بل استرجحه عن نفسه وليس لواصف أن يصفه فينصفه

بعد قول هذا الإمام فيه . قال لجلسائه : (لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شئونه وعدمه لأهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصية ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم، فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قطيعته قاهراً لأعدائه حامياً لذماره مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه) .

هذا هو السر فى قوة الفضائل التى تحلى الإنسان بالرجولية والصرامة والاجتراء فتجعله ممدوحاً على كل لسان حتى على لسان أعدائه (والفضل ما شهدت به الأعداء) .

أصبحت الخلافة الإسلامية بسببه خلافتين : خلافة أموية فى الأندلس ، وعباسية ببغداد ، وكانت سيرة خلفاء الأندلس أحسن من سيرة غيرهم فى الجملة. سار سيرة حسنة لم يلامسها روح الشقاق ، ولم تنزع فيها النفوس للخروج على السلطان ، كان رحمه الله قسطاساً للعدل يقعد للعامة يسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم فيصل بالضعيف إلى رفع ظلامته دون مشقة ويردع الظالم عن بغيه وعتوه ، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر قصرت عن بلوغ أمانيه التى كان يتمناها . نعم ، إنه غزا فيها بلاد الأفرنج و« البشكنس » ومن وراءهم ، ورجع بالظفر ، ولكن أين هذا مما كان يريده من إعادة دولة مروان بالمشرق كما كانت فى أبهتها وسطوتها قبل الخلافة العباسية .

استقر بقرطبة وهو الذى أدار عليها السور وأقام بها المبانى الضخمة ، فأصبحت موضع العجب بآياتها الباهرة فى الصناعة والأعمال العجيبة تحج إليها السواح من كل جانب ، لا يرفعون نظرهم لشىء من عجائبها إلا ويرد إليهم طرفهم مبتئساً يعييهم أثرها عن حذو تمثالها بتمثال ، ويعجزهم عن أن يتحدوه بمثال .

ألا فلتعجب جماعة المسلمين بمثل هذا الأمير وتفتخر به فخرها بعمل من لا

يساويه من أهل تلك الملل الأخرى ، فإن فى أفعاله جميع الضروب والأشكال التى تقصد فى المنافع كسعادة الأمم وتربيتها وإقامة الدول وحفظها من الانحلال ، ولو أن رجلاً اتصل بدار وهو من غير أهلها ، وقدر على أن يملكها منهم وأن يستخدمهم لذاته ، ثم ينظر فى وجوه سعادتهم فيدنيهم منها ، ويسهل لهم أبواب الخير حتى يعيش معهم ويعيشون معه فى أرغد عيش لعد ذلك عملاً عظيماً ودهاء كبيراً ، فكيف بمن يفعل ذلك بإقليم حشوه قوم جلاد شداد ، وقد أحاطت به دول فى غاية ما يكون من القوة والقدرة ، اللهم إن هذا من أعجب العجب .

يدهش الإنسان سمو هذه الغايات الشريفة التى مهما طوتها الأيام وأخذت من زينتها لا تزال محلاً للمناظرة وموضعاً للمباهاة تبدى زينتها وتباهى بنفسها حتى يذعن لها العدو المعاند والمنكر الجاحد ، ثم يندهش الإنسان من تلك الحوادث التى طرأت على هذه المدنية العظيمة حتى أحالتها إلى همجية ، بل أبادتها من يد أهلها .

كان هذا إنما نشأ من عدم رعاية خلفاء الإسلام لحفظ آثار بعضهم ، وأنهم لا ينظرون لها باعتبار أنها من عملهم ، بل يفرحون بزوالها وحلول الخراب فيها لتنسى الناسْ بذلك أسماء المشيدين لها ، كأنما أولئك كانوا من أشد أعدائهم ، أما بغير هذا فمحال أن تذهب آثار الإسلام على وجه الأرض ، وعلى الخصوص ما كان منها فى هذه الأقطار مما اتحدت الألسنة على أبهته وضخامته وجلالته .

الحاكم أبو الأمة والكل عياله ، والعلم سلم الترقى الذى يعرف به الولد حق أبيه ويدفع الوالد لأداء حق ولده ، وهو طاهر اليد من نعمته التى أنعم الله بها عليه فتتقوى أركان المملكة ويعظم جسمها وتتناهى فى العمران بعظم ثروتها وتوفر أعدادها واتساع بلادها ، فتسعد بالصلاح والإصلاح ، ويغمد بسر العدل والإنصاف ذلك السيف الفتاح ، فاللهم هيئ لنا الخير وافتح لنا أبوابه ، واسبل علينا من فضلك وعنايتك ما ييسر لنا صعاب أمورنا ، واهدنا وارشدنا إلى خير العمل حتى ندرك المعنى الذى به تتم الصالحات ، آمين .

* * *

(الحكم بن هشام) (*)

هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ، ثالث من ملك الأندلس من الأمويين، تولى بعهد من أبيه هشام بن عبد الرحمن الداخل .

كان هشام والده يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فكما أنه كان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور فيسألون عن سير عماله وأعمالهم ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف أحدهم أوقع به وأسقطه وقاصه ، كان متفقداً أيضاً لحال أبنائه ، ومن يظن انتهاء أمر المسلمين إليهم من بعده ، وهذه خلة من خلال عبد الرحمن الداخل ورثها أبناءه وعلمهم ترشيحهم وتثقيفهم على الأمر ، وبين لهم مزية السؤال عنهم وعدم إهمال تربيتهم وتثقيفهم وتدريبهم .

لذلك نشأ « الحكم » منشأ حسناً ، فكان فى معاليه صاعداً ، وفى مراقيه سامياً ، واستولى على شرف التأدب ، فكم من مطالب لذواهب المجد والفخر أدركها ومغانم من عوائد الحمد والشكر تخولها .

تولى بعد موت أبيه هشام سنة ثمانين ومائة فاستكثر من المماليك ومن رباط الخيل ، وأعد ما استطاع من القوة فاستفحل ملكه وسد مكانه ، واجتمع من بحضرته من أهل بيته وقواده ومواليه وغلمانه وجنده على متابعته ومشايعته ، فباشر معهم الأمور ، ثم حدثت فتنة بينه وبين عميه اغتنمها العدو واعتدها فرصة وقصد برشلونة فامتلكها ، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها بسبب فتنة الأقارب (وكذلك يفعلون) .

ثم بعث الجند إلى بلاد الجلالقة وأثخن فيها فخالفهم عدوهم إلى المضايق ، فرجع على التعبية وظفر بهم وخرج إلى بلاد الإسلام ظافراً .

يقال عن هذا الأمير : إنه كان فى صدر ولايته منهمكاً فى لذاته ، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة

(*) انظر : الحلة السيراء لابن الأبار ، نفح الطيب ، معالم تاريخ المغرب والأندلس .

الموطأ وطالوت الفقيه وغيرهما ، وما زالوا به حتى اقتتلوا معه فى طاعة الله : العلماء فى ناحية والأمير فى ناحية ، ثم انتهى الأمر بعد قتل وقتال وتغريب وتشريد .

هذه الحادثة شذت عن القياس فى محاربة الأمير لعين أعيان دولته وخيرة أنصار دعوته ، ولكن انظر لحال العلماء ومعاملتهم لأمرائهم وتقويم اعوجاجهم بالسيوف تجد أن تلك موعظة يجب النظر إليها بعين الاعتبار وأمثولة تستحق أن تحفظ ، اعتدل بعدها حال الأمير ، وازداد تخلقه بالأخلاق الحميدة ، واستمر على الطرائق الرشيدة ، وأوضح له الله السداد وأنار منهاجه وعرفه يمنه وبركته .

دخلت عليه سنة اثنتين وتسعين ومائة فجمع « لذريق بن فارلو » ملك الفرنجة جموعه وأغاربها على بلاد المسلمين ، وسار إلى حصار طرسونة ، فبعث الحكم ابن عبد الرحمن بعسكره فهزمه بإذن الله وفتح الله على المسلمين وعاد ظافراً ، ثم كثر عيث الأفرنج وعبثهم فى ثغور وحصون الأندلس ، والحكم من طرف ورجاله من طرف آخر يثخنون فى القتل والقتال حتى عاد إلى قرطبة ظافراً .

ثم فى سنة (٢٠٠) بعث العساكر مع ابن مغيث إلى بلاد الأفرنج ، فأخذ عدة حصون وأقبل عليه « الّيط » ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا أياماً ، ونال المسلمون منهم أعظم النيل وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين .

هو أول من جند الأجناد واتخذ العدة ، وكان فحل بنى أمية بالأندلس وأشدهم إقداماً ونجدة . قال بعض المؤرخين : إنه كان يشبه أبا جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى شدة الملك وتوطيده وتمكين الدولة وتشييدها وقمع الأعداء، وكان يحب الخير ويعين عليه ويراعى صنعه وينمى غرسه ويسبغ نعمته إذا أولاها ، ويتمم عارفته إذا أسداها ، من ذلك فعله فى المجاعة الشديدة التى وقعت سنة سبع وتسعين ومائة التى أكثر فيها من مواسات أهل الحاجات والفقراء حتى سارت بخبر خيراته الناس ودونتها الرواة .

استمرت مدة ملكه ستاً وعشرين سنة . قال غير واحد : إنه أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبهة وشأناً ، وهو أول من جمع الأسلحة والعدد ،

واستكثر من الخدم والحواشى والحشم ، وأعد رباط الخيل على بابه ، وكانت الجياد التى على شاطئ النهر قبلى قصره ألفى فرس ، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يباشر الأمور بنفسه ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين ، وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالأندلس .

ومن أعجب ما يروى عنه أن العباس الشاعر توجه إلى الأندلس ، فلما نزل وادى الحجارة سمع امرأة تقول : (واغوثاه بك يا حكم ، لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا) فسألها عن شأنها فقالت : كنت مقبلة من البادية فى رفقة فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت ، فصنع فى قصيدته التى أراد أن يلقاه بها أبياتاً منها :

تململت فى وادى الحجارة مسئداً ... أراعى نجـــوماً ما يرون تغـــيرا

إليك أبا العاصى نضـــيت مطيى ... أســـير إليكم سارياً ومهجـــرا

تدارك نســـــاء العالمين بنصـــرة ... فإنك أحرى أن تغيث وتنصـــرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه، فأنف ونادى فى الحين بالجهاد والاستعداد ، فخرج بعد ثلاثة إلى وادى الحجارة ومعه الشاعر ، وسأل عن الخيل التى أغارت من أى أرض للعدو كانت ؟ فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية وفتح حصونها وخربها وأحضر المرأة وجميع من أسر له أحد فى تلك البلاد ، وقال للعباس : سلها ، هل أغاثها « الحكم » ؟ فقالت : والله وشفى الصدور وأنكى العدو ، وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نفره ، فارتاح لقولها هذا .

مثل هذه النجدة الآن تعجز أوروبا بأجمعها عنها ، ولقد أعجزتها فعلاً فى مسئلة البوير ، فلم تنبس ببنت شفة ، وأبح صوت الشيخ الرئيس كروجر فرط النداء والاستصراخ ﴿ **وما أنت بمسمع من فى القبور** ﴾ ، قبور الشهوات والملاذ التى أنست الناس الفضيلة ومكارم الأخلاق وصبحتهم لا يعرفون شيئاً غير صيانة هياكلهم فى حصون الجبن حتى أصبح الصدق تقريعاً ، والنصح والإخلاص

تضييعاً ، وكأنك لو نظرت لتاريخ أوروبا والمشرق لا تجد غير ذلك : اندفاع إلى المنفعة والمغانم بغير نظر إلى شرف أو فضيلة .

إنا لو شئنا سرد الشواهد على أن مدنية أوروبا (بالقول لا بالفعل) ، لاحتجنا إلى تأليف جديد ، ولكن الظن بالقراء أنهم يكتفون ببعض هذه الشواهد الظاهرة والأغراض السياسية الكاذبة مما لا يوجد فى بلاد المسلمين أبداً لأنهم يجهلون التلفيق والتمويه فى الحقائق وإبرازها فى أثواب الزور المدبجة بألوان التمدن العصرى .

❊ ❊ ❊

(عبد الرحمن بن الحكم) (*)

هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الأموى ، هو أبو المطرف عبد الرحمن الثانى ملك الأندلس ، يقال له : عبد الرحمن الأوسط لتوسطه بين عبد الرحمن الأول والثالث .

ولد بطليطلة سنة (١٧٦) ، وتولى الخلافة سنة (٢٠٩) على أثر وفاة والده وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، وولى الحكم ثلاثين سنة وتوفى سنة تسع وثلاثين ومائتين .

كان عبد الرحمن أسمر طويلاً أقنى الأنف عظيم اللحية حازماً قوياً شجاعاً ، جمع الله فيه ما بين لطف الأدباء والشعراء وفضل العلماء ، وشجاعة القواد ومهابة الحكماء ، فكان نادرة زمانه .

هذبه أبوه الحكم وعوده على الجلوس على مراتب الملك والسلطان ، لأنه استعان به فى مهمات أموره من الوظائف السلطانية التى تندرج تحت الخلافة ، ويشتمل عليه منصبها من أحوال الدنيا والدين فأنفذه فى عظام المهام وولاه قيادة الجند فى محاربة الأفرنج ، وتذليل البلاد الثائرة فأصبح له من النظر بأمور الجند والسلاح والحروب والبصر بسائر أمور الحماية والمطالبة بالحقوق ما يكفى لمثل هذا المقام ، وحسبك أنه هو الذى أخمد فتنة طليطلة باليوم المعروف بيوم الحفرة المبسوط خبره فى مواضعه من كتب التاريخ .

تولى الملك بعزيمة الصلاح ومساعى النجاح وأولاه الله العز والنصر وخص أعداءه بالذل والقهر ، فقد خرج عليه عم أبيه « عبد الله البلنسى » ينازعه الملك ، فلم يلبث أن مات وخلصت الحكومة له ، فصرف همه لإخماد الفتن داخل بلاده، ورد غزوات الأفرنج عنها ، ورفع معالم العلم فيها ، وكان له الفوز فى أكثر حروبه ، واستولى على برشلونة وغيرها من البلدان ، وطرد الفرنساويين من قطالونيا .

(*) انظر : نفح الطيب للمقرى ، موسوعة الأندلس للدكتور حسين مؤنس .

وقف حائلاً بين النوائب وبين مملكته دافعاً عنها أحداث الزمان آسياً لكلومها جابراً لثلومها ، ففى عام توليته أخمد فتنة البيرة وأوقع بأهلها الوقعة المعروفة بوقعة بالس . وفى السنة التالية سير جيشاً إلى بلاد « البة » مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فحاصرها وأحرق عدة حصون بها وغنم الغنائم وعاد بعد أن صالح أهلها على مال كثير .

وقعت هيبته فى قلوب ملوك الأفرنج ، ففاز فوزاً عظيماً ، وغزا بلادهم مرات ووفق لإخماد الفتنة اليمانية والمضرية ببلاد مرسية ودانت له وافتتح برشلونة مرة ثانية بعد ما انتقضت عليه وهدم سورها ، ثم فتح مدينة باجة واستولى على مدينة طليطلة ، ثم كانت له وقائع كثيرة مع الأسبان فى أطراف بلاده والفرنسويين ، وكان الفوز له فى معظمها مع الغنائم الكثيرة .

كانت فى أيامه غزوات النور منديين [١] المعروفة فى تواريخ العرب « بغزوات المجوس أو ظهور المجوس » ، واختلف القوم فى تواريخ حدوثها وفى تعداد غزواتها ، ومنهم من جعلها غزوتين والأظهر أنها غزوات متتابعة لم تكن ذات شأن فى أول الأمر ، ثم أقبل النورمنديون فى أوائل عام (٨٤٥) مسيحية بجيش جرار فى سفنهم وعاثوا فى سواحل الأندلس ونهبوا « قادس » وظفروا بالمسلمين، ثم ساروا إلى أشبيلية فى السنة التالية ، فخرج إليهم أهلها وقاتلوهم ، فقتل الكثير من المسلمين وانهزموا وأكثر النورمنديون من النهب والسلب ، وعاثوا فى البلاد وعادوا إلى مراكبهم ثم خرجوا منها ، وحشد عبد الرحمن جيوشه من كل البلاد ، وكانت بين الفريقين حرب شديدة فاضطر النورمنديون إلى الرحيل عن أشبيلية ، ولكنهم ظلوا ينتقلون فى السواحل ويعيثون سلباً ونهباً إلى أن تمكن عبد الرحمن بعد الجهد الجهيد والعناء الشديد من طردهم عن بلاده .

وصلت جيوشه إلى مدينة ليون ورموها بالمجانيق ، فهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم منها المسلمون غنائم كثيرة .

كانت الخلافة بالأندلس لا تشبه غيرها من خلافات المشرق لما يلزمها من شدة الحذر وطول السهر وقلة الراحة ودوام اليقظة ، لأن غارة جيرانها من الأمم المباينة

---

(١) أهالى نور منديا فى جنوب فرنسا ، وأصلهم من السويد .

لها لا تنقطع ، ولأن المسلمين فيما بينهم « جسم غريب » ، وكل فرد من هذه الشعوب ليس له هوى غير الانتقام منهم ، والتمكن من إعادة أرضهم وملكهم إليهم والحوطة عليه وشغلهم أن يبقوا متكالبين على الطلب ، ومنتهى آمالهم أن يعيدوها كما كانت لا يغفلون عن ذلك أبداً ، وليسوا بصامتين فيحتاجون إلى من ينطقهم ولا لاهين ، فيضطرون إلى من ينبههم بل متعرضين لذلك تعرض المستميت بعزم الواجد لا المتكلف ولا يزال حكماؤهم ينصحون به الناس على طول الأيام والناس فاعلون .

هذا حال العدو المحارب ، وأشد منه حال الصديق المخادع ، والوصيف المنافق وهم الذين يرصدون مراصد الكيد للدولة من العمال ، فقد انتقض عليه بعض عماله يدعون للخلفاء العباسيين ببغداد ، « ولو كانوا ببغداد لدعوا فيها للأمويين بالأندلس » ، فكان هؤلاء من طرف وحروب الأسبان من جهة أخرى حتى استقلت ولايتا « أراغوان » و« نواره » عنه ، ومع هذا فقد ترك ملكاً قوياً خلفه عليه ابنه « محمد » .

بلغ مرتبة تقطعت دونها أنفاس المنافسين وتضرمت أحشاء الحاسدين من الثأى الذى رأبه ، والشعث الذى لمه ، والعدو الذى أرغمه فبعث إليه « نوقلس » ملك القسطنطينية بهدية وطلب مواصلته ورغبه فى ملك سلفه بالمشرق [1] (تأمل لهذا الحذق فى بذر بذور الشقاق وانظر سهام المكايد النافذة) ، وذكر له المأمون والمعتصم فى كتابه وعبر عنهما « بأسماء أمهاتهما » امتهاناً فلاقت هذه الحالة من الأمير عبد الرحمن رجلاً خبيراً حكيماً فدفعها بدهائه وكافأه على هديته ، وبعث إليه « يحيى الغزال » من كبار أهل الدولة ، وكان مشهوراً فى الشعر والحكمة ، فاحكم بينهما وصلة الحب ، وارتفع لعبد الرحمن عنده ذكر وأى ذكر .

كان واسع الرزق فى كل شيء حتى فى ذراريه ، فقد مات عن (٤٥) ولداً ذكوراً ، وكان أديباً شاعراً عالماً بالشريعة وغيرها من علوم الكلام بعيد الهمة ، وهو أول من شاد القصور الجميلة والمنتزهات ومهد الطرق ، وأتى بالماء العذب إلى قرطبة من الجبال ، وبنى المدارس وأسس ديار العلم ، وشاد الجوامع الكثيرة

---

(١) يعنى الخلافة الأموية بالشام التى ابتذتها منهم العباسيون .

وبنيت فى أيامه الجوامع بكور الأندلس ، وزاد فى جامع قرطبة ومات قبل أن يتمه فأتمه ابنه « محمد » .

هو رابع ملوك الأمويين بالأندلس ، ولكنه أول من أقام أبهة الملك ، وكان محباً للعلماء والأدباء ، جمع إليه ذوى الشهرة من شعراء العرب وذوى الفضل منهم ، ويعترف الأوربيون أنه لم يكن فى زمانه دار ملك كدار ملكه أبهة ومجداً .

لعل عبد الرحمن هذا هو الذى نقل هيئة الحكومة إلى ما رمز إليه العلامة ابن خلدون فى مقدمته من غير أن ينسبه لأحد (قال فى كلامه على العمران البدوى : وأما دولة بنى أمية بالأندلس فألفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً ، وجعل لهم بيت يحلون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان كل فيما جعل له . . . إلخ) ، وهذا شىء أشبه بنظار الحكومات الآن (ولعله مبتدعه) .

دخلت فى مدته صناعة الغناء من المشرق إلى الأندلس بوفود زرياب المغنى مولى المهدى من العراق إليها ، وهو تلميذ إبراهيم الموصلى فركب بنفسه إليه وتلقاه وأكرمه ، وقام عنده بخير حال ، وأورث صناعته أهل المغرب ، وخلف أولاداً وخلفه فى صناعته وخطوته كبيرهم عبد الرحمن ، ثم انقطع هذا إلى أزمان الطوائف .

وغير خاف أن هذه الصناعة هى آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح ، وهى أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه أو تبدله (كما هو واقع بمصر الآن) ولا مشاحة فى أن هذا الفن من أجل الفنون لأنه ينفع المرضى كما ينفع الأصحاء ، وقد كشفت العلوم الجديدة والتمدن الحديث لزومه لكيان الوجود والحياة لزوم الماء والشعب ، وأن عليه مدار صحة الأمم لأن الفراغ واللذة بعد الكد والعمل لابد منهما وإلا فالمنبت هالك لا محالة .

وهو أول من أحدث النقش فى الخاتم بمزيد عن الاسم ، فكان نقش خاتمه

«عبد الرحمن لقضاء الله راض» ، وكانت أيامه أيام رغد وهناء على ما فيها من الحروب بل الفتن الداخلية ، وذلك لأنه كان يتلقاها بفكر ورأى وثبات جأش وحزم ، فلا تلبث الفتنة أن تزول ، ولذلك بلغ فى ملكه اتساعاً عظيماً وجبى مالاً كثيراً ، وكان طروباً فخوراً بجده وأعماله اللائقة ، فمن شعره فى ذلك :

تـدارك بـى الله ديـن الهـدى ... فأحـيـيته وأمـت الصـليبا

ألاقى بوجهى سموم الهجير ... إذا كاد منه الحصى أن يذوبا

فكم قد تخـطيت من سبسب ... ولاقـيت بعـد دروب دروبـا

وكان مولعاً بالسماع محباً له ، وهو أول لذاته ، شغله عن كثير من المنكرات التى تعظم عليه بتبعتها والحمد لله .

لا شك أن القارئ ينسب كل ما لهذا الخليفة من الأعمال الخيرية لقوة الدين وشدة العزيمة ، والبحث عن عواقب الأمور وفرط الروية والتبصر ، وأساس ذلك كله العلم والعمل اللذان فتح له بابهما أبوه .

باشر فى عهد أبيه الملك فدربه فيه تدريب الحكيم ، فمذ وليه لم يتعثر فى ذيله الطويل ، ولم يتحمل أبوه مسئولية الخلافة حياً وميتاً ، بل أبرزه للورى إبرازاً لا يفرى أحد فريه .

صرف بصره إلى وطنه ، وعرف ما يجب له عليه ، فحدق النظر ، واستطلع الخفايا ، واستجلى الدقائق ، فتجلت له دعامة وجوده وروح حياته ، فرأى أنه بالفضائل يحيا وبالرذائل يموت ويفنى ، وباختيار الأمناء الأكفاء من الرجال يعز ويغنى ، وبالدخلاء يذل ويشقى .

تجلى له هذا المظهر فشعر بأن له شأناً عظيماً فى الوجود ، وأحس بقواه المقدسة التى أودعها فيه مدبر الكون ، فاندفع إلى طلب الفضيلة الحقيقية والكمال الصحيح الذى هو له أهل ، فأصبح من أحسن الناس سيرة :

وإنما المرء حـديث بعـده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

* * *

(عبد الرحمن الناصر) (*)

هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس من الأمويين ، ويعرف بعبد الرحمن الثالث ، ولد فى سنة (٢٧٧) ، وتولى الحكومة سنة (٣٠٠) ، وتوفى سنة (٣٥٠) .

وجد الأندلس مضطربة بالمخالفين ، مضطرمة بنيران المتغلبين ، بسبب أن من تولى الأندلس بعد عبد الرحمن الأوسط « كمحمد » و« المنذر » و« عبد الله » لم تصافيهم جيرانهم ولم تهملهم أيامهم ، فلم تطل مدتهم فى الملك ، ولم تطل أيديهم على أعدائهم بالدمار والهلاك ، فاشتغل فى إطفاء تلك النيران واستنزال أهل العصيان مدة استوعبت نيفاً وعشرين سنة من أيامه حتى استقامت له الأندلس فى سائر جهاتها بعد استيطان البلاء وفقد الرخاء واشتعال نار النفاق وضيق الآفاق ، فإذا به بسط العدل المشهور بالسيف المنصور ، وحقن الدماء المسفوكة ، وأمن السبل المخوفة ، وأحرز الأموال المنتهبة ، وحصن البلاد الخربة ، وجمع بإمامته الكلمة بعد افتراقها فهو الذى رفض الدعة وهى محبوبة وترك الرأفة وهى مطلوبة ، لتلين له الأحوال بعد الشدة وتكسر من شوكتها بعد الحدة ، والحمد لله على آلائه .

ومن الغريب أنه كان فى عهد توليته شاباً وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى إليها واجتازها دونهم ، كأن الله هيأه وأعده لما أراده من الخير على يديه لهذه البلاد .

هو أول من تلقب بألقاب الخلافة وتسمى « بأمير المؤمنين » ، وكانوا من قبله يخاطبون ويخطب لهم بالأمير كما تقدم الكلام ، وذلك عندما تحقق أن أمر الخلافة بالمشرق قد ضعف واستبدت على الخلفاء مواليهم والتاث أمرهم على جماعة المسلمين ، وتطاولت أيدى الديلم لقتل الخلفاء (كما وقع للمقتدر من

(*) انظر : موسوعة الأندلس للدكتور حسين مؤنس .

خادمه مؤنس) ، فظهر بمظهرها فى مجالس الحشد والحفلة ومواطن الأنس والعظمة مستكملاً شعارها من الإكبار والإعظام والإجلال والإكرام .

مدت إليه أمم النصرانية المجاورة لمملكته من وراء الدروب المستحكمة يد الطاعة والإذعان خوفاً على أنفسهم وممالكهم من مطوى أفكاره ومخبوء تدابيره السديدة وآرائه المفيدة فصفا لهم إذ صافوه ، وأمنهم إذ سالموه تحرزاً من الوقوع فى إشراكه، وأوفدوا عليه من رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والتزلف والسلم والاعتمال فيما يعين فى مرضاته ، ووصل إلى سدته الملوك المتاخمون لبلاد المسلمين بجهات « فشتالة » و« بنبلون » ، وما ينسب إليها من الثغور الجوفية ، فكانوا يقبلون يده ويلتمسون رضاه ويحتقبون جوائزه ويمتطون مراكبه ، وكل وفد من الوفود يحتفل فى لقياه بالعسكر والقواد وأصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة كالموالى والحشم بما يناسب هول المقام وأبهة الخلافة ، ثم تقام لذلك الاحتفالات الشائقة وتتلى فيها الخطب الرائقة بما يدل على فخامة جاه الدولة وبيان ما يخطبه الغير من مودتها ، ثم يغدق على أولئك الوفود بالعطايا فيخرجون من الحضرة ويرحلون عن البلاد ، وقد اشتد عجبهم وطال تحدثهم بما رأوه من قدرة السلطان وعظمة الملك مما هو مبين فى مواضعه .

سما إلى ملك العدو فتناول « سبتة » ونقل « الفرضة » من أيدى أهلها ، وأطاعه بنو إدريس أمراء العدوة ، وملوك زناتة والبربر ، وفتح طليطلة ، وقرمونة وأشبيلية ، وكثيراً من البلاد العاصية والنواحى المستقلة .

كانت أيامه أيام جهد وعناء بما لقى من عنت الخوارج وتمرد العصاة وطمع ملوك الأطراف من المسلمين ، وقتال أمراء النصارى فى أستوريا ونواره ، وملكى لاون أوردينو الثانى ، ورامير الثانى ، ومحاربة الفاطميين فى أفريقيا بعد ظفرهم بالملوك الأدارسة وإيغال جنوده فى السودان المصرى ، ومع ذلك فقد خرج ظافراً من معظم تلك الحروب ودوخ البلاد وأخمد الفتن وظفر بالمنتقضين عليه .

انظر لما شيده من الآثار وأقامه من علائم المجد مع هذه البلايا والمصائب الداخلية والمحن والفتن الخارجية الملتفة حول كرسى خلافته لا يكاد يلتفت إلى واحدة منها إلا وتستصرخه أخرى .

يده بيضاء على العلم والصناعة والتجارة ، فازدادت بذلك شهرته ومكانته ،

فهو الذى أنشأ المبانى العظيمة ، وشيد المساجد والجوامع والمدارس الفخيمة ، ومن أشهر هذه الأعمال الخطيرة « مدرسة الطب » ، وهى أول مدرسة نشأت فى أوروبا بإجماع المؤرخين ، « والمكتبة الشهيرة » بغرناطة ، وهى أجل مكتبة كانت فى عهدها على ظهر الأرض أودعها ستمائة ألف مجلد ، و« الأسطول » البحرى الذى غزا به أفريقيا .

شيد مدينة « الزهراء » ، وكأنما أحاطها بشعار التعظيم وألبسها رداء التكريم ، وناهيك ببلدة استدعى لإقامتها وبناء قصره « دار الروضة » فيها عرفاء البنائين والمهندسين من كل جهة ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، وأُقيمت على (٤٣٥٠ عامود) من المرمر الخالص ، وصرف فى بنائها (٧٥٠٠٠٠٠ دينار)[١] ، واستغرق العمل فيها خمس سنين .

جلبوا إليها الماء من مستقره فى الجبال لسقاية المدينة ولوازم قصره وقصور سلفائه ، وأفخموا له تلك المبانى وأعظموها فى نظر كل إنسان ، ففاتت لعلو درجتها ما تقدمها من الآثار ، جمعت عجائب البناء وغرائب الأشياء فحدائق القصور التى شيدها كلها ميدان اعتبار واختبار كانت متنزهاً للإنسان ومرتعاً للحيوان ومسارح للطيور ، فهى للممالحة والحاجة والفطانة والنزاهة ، ثم أقام دار الصناعة [٢] ، وجمع فيها من آلات السلاح للحرب ما لا يوصف ، وأحيا بواسطتها ميت الأعمال الصناعية ، ثم جلب إليها ما قدر عليه من الخارج أيضاً كصناعة العاج والآبنوس والصفر ومواد التلبيس والترصيع والتطعم بالفضة والذهب التى لا تزال آثارها باقية للآن فى تعاريج أبواب القصر والمدينة مجلبة للحسرات على مواضى هذه الأيام :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
إن البناء إذا تعاظم قدره ... أضحى يدل على عظيم الشأن

ذكرت جماعة المؤرخين سبباً لطيفاً لبناء هذه المدينة « الزهراء » قالوا : إن

---

(١) قيمة الدينار تساوى نصف ليرة إنجليزية تقريباً .

(٢) حرفت هذه اللفظة حتى صارت « ترسخانة » وهى المعروفة .

الناصر ماتت له سرية وتركت مالاً كثيراً ، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب فى بلاد الأفرنج أسيراً فلم يجد ، فشكر الله على ذلك وبنى هذه المدينة (فللّه من هذا الفكر السامى الذى صير ماله بين أن يجلب به على الأمة الشرف العظيم أو يقيم لها به الأثر الفخيم) .

ما كان أحوج هذا الملك العظيم إلى السلامة التامة من جميع وجوهها ليكون متساوى الفخار بين سره وجهره وعالنه وباطنه ، ولكن أين تذهب خيانة الخونة الذين ليس لهم شغل إلا طمس المعالم ودروس المآثر للأغراض الذاتية فيهتكون ما يحق أن يصان من حرمة الملك ويخرقون ما يجب أن يحفظ من هيبة السلطان، فهم الساهرون إذا رقد الناس المستيقظون إذا ناموا ليشنوا أنكر الغارات على الحاكم ويقيموا أقبح العثرات فى وجه الخليفة ليقعدوه عما هو فيه من نصرة الدين والمسلمين .

كان الخليفة عبد الرحمن كثير الجهاد والغزو بنفسه ، فيسير إلى دار الحرب ليثخن فى العدو حتى يدعوه للطاعة ، لا شغل له إلا فتح الحصون وامتلاك البلاد والنواحى وإقامة ميزان عدله فيها .

كبر على الخونة والمردة أن يوطئ عساكر المسلمين من بلاد الأفرنج ما لم تطأ قبل من أيام أسلافه ، وحدث أنه كان للخليفة عبد الرحمن وزيراً اسمه « أحمد » نقم عليه أمراً واتهمه بخيانة فقتله ، وكان لهذا الوزير أخ يدعى أمين بن إسحاق من بنى إسحاق أمراء الأندلس المروانيين « عمال الأندلس فى عهد بنى أمية وبنى مروان » ، فحقد ابن إسحاق على الخليفة وعصى فى مدينة « شنترين » سنة (٣٢٥) ، وأحدث بها ثورة عظيمة ، ثم التجأ إلى « رادمير » ملك الجلالقة ودله على عورات المسلمين ، وكانت بينهم الواقعة المشهورة بواقعة « الخندق » ذهب فيها من عسكر المسلمين خمسون ألفاً أو يزيدون بخيانة هذا المارق ، والأعجب من ذلك أنه استأمن إلى الخليفة عبد الرحمن بعد أن تخلص من « رادمير » ووسعه حلمه وكرمه وقبله أحسن قبول .

بعد هذا الحادث قعد الخليفة عبد الرحمن عن الغزو بنفسه ، وصار يردد

الصوائف [١] فى كل سنة ، ثم جهز عسكراً مع عدة من قواده إلى الجلالقة ، وكان له عدة حروب هلك فيها من الجلالقة خلق كثير .

انظر « لولا هذه العثرة » كيف يكون ملك الأندلس مع خليفة مثل هذا جمع أشتات الفضائل ، حيث أعطى القوتين العلمية والحربية ، ورفع منار العلوم والفنون ، وأدخل فى الأندلس مفاخر كل جهة وزينة كل بلد ، وانقاد له المغرب الأقصى ، وحث الناس على الأدب الدينى فانغمسوا فيه فرقت نفوسهم ، وسمت إلى مراقى الفلاح ونشرت التربية القومية بتعميم العلم والتهذيب بغير تقصير من العلماء الذين هم روح الأمم وحياتها ، فبعث الأمة فى خلق جديد .

لطيفة له (أقصها عليك ، تعلم منها قدر احترامه للعلماء وقدر إعظام العلماء أنفسهم فى أيامه لما ذاقوه من لذة العلم وأحسوا به من شرفه) : اشتاق مرة للفقيه الإمام أبى إبراهيم فطلبه وكان بالمسجد المنسوب لأبى عثمان يسمع طلبته الحديث الشريف ، فبعث إليه الخليفة خادماً يدعوه إليه ، فلما جاءه وبلغه رسالة مولاه قال له : السمع والطاعة ولا عجلة ، ارجع إلى أمير المؤمنين واذكر له عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله مع طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ يقيدونه عنى وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضاء الله وطاعته ، فإذا انقضى مشيت إليه إن شاء الله ، فمضى الخادم ولم يك إلا ريثما أدى جوابه وعاد يقول : أنهيت إلى أمير المؤمنين رسالتك ؟ فقال : جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين وإذا أنت أوعيت فامض إليه ، وكان ذلك .

فحبذا الحاكم والعالم هؤلاء الرؤساء الصادقون المفلحون الذين زينوا وجه الدين وانصرفوا عن الفخفخة الباطلة إلى الصراط المستقيم وعلى فعلهم هذا بنى القائل قوله :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظـموه فى النفوس لعظما

فمتى علماؤنا لهذا السر يفقهون وبهذا القليل يتعظون ؟

تهذبت فى أيامه الأمة ، فجمع ما يؤثر عن أهل الأندلس من نوادرهم

---

(١) الصوائف : جمع صائفة ، وهى غزوة الروم صيفاً لقلة الثلج والبرد .

وحكاياتهم فى العدل ، والوفاء ، وحسن الاعتذار ، والقيام بحق الأخاء ، وعلو الهمة فى العلم والدنيا ، والذكاء ، واستنباط العلوم واستخراجها ، وحب العلم ، واللطف ، ورقة الأخلاق ، والقوة ، والشجاعة ، والملح ، وأجوبة الملوك ، والظرف ، والبلاغة ، وعدم احتمال الضيم والذل والأنفة ، والجود والفضل ، وسرعة البديهة ، والعفو ، وغير ذلك من الخصال الحميدة التى تدخل تحت عنوان « مكارم الأخلاق جميعها » ، مما ذلك فى مدته ، فهو إما باذره أو غارسه أو منميه أو مستثمره رحمه الله .

مضت أيام هذا الخليفة على الأندلس وكأنما هى خيال حالم أو حديث نائم تولاها ولم يكن فى بيت المال ما يسد شيئاً من نفقات الجند وغيرها، ثم توفى فترك من الأموال المدخرة شيئاً عظيماً ، فضلاً عن السلطان الكبير والمجد الباذخ حتى لقبه الأفرنج بالكبير والعظيم .

عمر مملكته بالعدل والإحسان ، فنمت البركة فيها وانفسحت نفوس الرعايا للسعى والاكتساب ، وابتعد عن الظلامات المفسدة للعمران من تكليفهم بالأعمال وتسخيرهم بغير حق أو أخذ ما بأيديهم بأبخس الأثمان ، فقامت الدولة وعظم عمرانها لأمان الناس على أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم .

كانت الأندلس فى زمانه زاهية بالمعارف والعلوم زاهرة بالثروة والغنى يعجب الذى يقابلها بحالها اليوم ، فأين كثرة الصناعة والتجارة والمعامل الحريرية والمصانع الغريبة وورش التطريز والوشى والنسج ، ومع هذا الكمال الذى لا يفضله إلا الكمال الإلهى ، فقد وجدت بعد وفاته ورقة مكتوبة بخط يده يعدد بها أيام السرور التى صفت له مدة حياته ، فإذا بها أربعة عشر يوماً .

نقب الكثير من طلاب الأخبار على هذا الأثر ، فما عثروا عليه وجال فى فهم الكثير منهم تأويل ذلك أو استنتاجه ، فذهبوا أيضاً مذاهب شتى ، والذى يدل على الخبر إن صح أن تلك الأيام التى عدها هى أوقات فراغه من أشغال الملك ، لأن الملك بنى على المشاغل وهى لا تنتهى ، فإذا تم للملك ما يريد وأمكنه أن يرصد لنفسه وقتاً يرى نفسه فيه خالياً عن حاجات المنصب الذى أقامه الله فيه ، فتلك سعادة ما فوقها سعادة ، وقد قال قوم غير ذلك ، وكثر القول حتى ألف

بعض الأجانب رسالة فى تلك الأيام ذهب فيها مذهب القصص و« الرومان » ، فأضعف هذا التخمين ذلك اليقين ، والله أعلم .

وخير ما فى المسئلة أن ينظر العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها ، هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة لا إله إلا هو ، ثم يستكثر فى أعماله من كل خير وبر ، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور :

لا تغبط الأقوام يوماً على ما أكلوا خضماً وما سربلوا
يذبل غصن العيش حقاً ولو أضحى ومن أوراقه يذبل

* * *

(الحكم المستنصر بالله) (*)

هو الحكم المستنصر بالله ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر وولى عهده من بعده، اعتلى سرير الملك يوم وفاة أبيه يوم الخميس ، وقام بأعبائه أتم قيام ، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ، ودعا الناس إلى بيعته واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته ، وضبط قصوره وترتيب أجناده ، وأول ما أخذ البيعة على أهل القصر ، ثم على أخوته ، وكانوا يومئذ ثمانية فوافى جميعهم وجلس وجلست الناس للبيعة طبقة طبقة كما هو مفصل فى مواضعه ، فلما تمت أذن للناس بالانفضاض ، ثم أخذ هو وأخوته فى تشييع جنازة الناصر لقصر قرطبة للدفن هناك فى تربة الخلفاء .

وفدت عليه الوفود للبيعة والتماس المطالب ، وقدمت من أقاسى البلاد ، فجرى على رسم أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر رضى الله عنه فى سلوك سبيل القصد واتباع طريق الرشد واحتذاء حسن الأثر حتى قالوا : إن الأندلس لم تفقد إلا شخصه ، وصح عليه قول أبى الحسين فى ممدوحه أبى العشائر :

يا ابن مـــن كلمـــا بدوت بدا لى　　　غائب الشخص حاضر الأخلاق

لو تنكـرت فـى المكـرّ عليهـــم　　　حلفـــوا أنك ابنه بالطـــــلاق

استخلف على عمله أهل الفهم والمعرفة وذوى الدين والورع والدعة والفقهاء المشهورين بالغناء والكفاية والعلماء الجامعين للرواية والدراية حتى ظهر فى عيون الأعداء والأصدقاء بمظهر الكرامة والاحترام .

أهدى للحكم فى أوائل ولايته هدية جمعت أفخر الآثار العظيمة والنعم الزائدة، فمن مماليك كأنها الأغصان ناشية على ظهور خيول صافنة كاملو الشكة والأسلحة ، يشجى بهم حلق العدو المناوئ والخصم المنازل والسيوف والرماح والتراس والقلانس الهندية والدروع والخوذ المختلفة الأجناس ، فكان لذلك مفتخر

(*) انظر : موسوعة تاريخ الأندلس .

جليل ومحتفل جميل تضاعف به اغتباط قوة حرمة الملك ، واستطال به عماده على جميع المملكة .

غزا بنفسه لأول وفاة الخليفة الناصر جيوش الجلالقة الذين طمعوا فى الثغور واقتحم بلد « فردلند » ، وفتح « أشتبتين » عنوة ، فبادروا إلى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاه بلاد « جليقية » ، وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم ، وأوطأ العساكر بلد « فردلند » ، وغزا « شانجة بن رادمير » ملك البشكنس ، وقد ساعده ملك «الجلالقة» فهزمهما ، وقصد بلاد برشلونة ، وبلاد القومس وعظمت فتوحاته وظهرت همة قواده ومرابطى ثغوره فى كل ناحية ، وكان من أعظمها فتح «قلمرية» و« قطوبية » .

تم دخلت سنة (٣٥٤) فابتنى حصن « عرماج » ، وظهرت فى هذه السنة مراكب المجوس فى « الأطلانطيق » ، وأفسدوا « أشبونة » [١] فناشبهم أهلها القتال فرجعوا إلى مراكبهم وأمر الحاكم القواد ، فخرجوا لحفظ السواحل ، وأمر قائد البحر بتعجيل حركة الأسطول ، ونال منهم من كل جهة من السواحل .

ثم له ما أراد مع ملوك البشكنس وغيرهم وعاهد « لذريق » ووفدت عليه أمه بهدايا ملوكية عظيمة ووصلته ووصلها وحملها أحسن محمل وأجزل عطاءها .

أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط وتلقى دعوته ملوك زناتة من مفراوه ومكناسه فبثوها فى أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ، ووفد عليه من بنى الحرز وبنى العافية ، فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم ، واستنزل بنى إدريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف وجلاهم إلى الاسكندرية .

أما خلاله الشخصية فقد كان آية فى الفضيلة ، سمع من أجلاء وقته ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير ، وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جمّاعاً للآثار الشريفة والأسفار الكريمة والكتب القيمة على اختلاف أنواعها ، فسبق من تقدمه وجمع ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ، فأقام للعلم سوقاً ،

---

(١) ليسبون : قاعدة مملكة البورتوغال الآن .

وجدد للعلماء شوقاً ، وظهر بهذا المظهر فجلبت إليه بضائع الفضل من كل قطر وحسبك بخزانة جمعت من الأسفار ما اقتضى لاستيفاء فهرستها « أربعة وأربعين جزءاً » ، جمع مقداراً ضاقت خزائنه عنه ، وكان ذا غرام بها ، وقد آثر ذلك على كل لذائذ الملك وأغراض الملوك ، فاستوسع علمه ودق نظره وجمعت استفادته ، وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب ثقة فيما ينقله ، ومن أشد ما يتعجب منه ، وقد اتفقت على روايته الرواة أنه قلما يوجد كتاب فى خزانته إلا وله فيه قراءة فى أى فن كان ، وعليه تخاريج بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده .

أتحفه أبوه « الخليفة الناصر » بأحسن ما يتحف به والد ولده ، فقربه من العلماء وقرب العلماء منه ، ومكن بينه وبين كل وافد على الأندلس من المشرق من العلماء ، فكانت نفسه روحانية صرفاً ، وفد أبو على القالى صاحب كتاب الأمالى على الأندلس من بغداد ، فأكرم الناصر مثواه وأحسن منزلته وأعلى قدره، واختصه بالحكم فأورث أبو على الأندلس علمه وأفاد الحكم بأحسن ما عنده.

قويت عند الحكم رحمه الله مادة حب العلم حتى كان يبعث بالتجار إلى الأقطار ، ومعهم الأموال لشراء الكتب واستجلاب المصنفات من الأقاليم والنواحى باذلاً فيها ما أمكن من الأموال مما لا ينفقه غيره حتى جلب للأندلس ما لم يعهده علماؤها ، هذا كتاب الأغانى بعث فيه لأبى الفرج الأصفهانى مصنفه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخته قبل أن يخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهرى فى شرحه لمختصر بن عبد الحكيم .

جمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والإجادة فى التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، ولم تزل بقصر قرطبة حتى أصابتها مصيبة البربر عند دخولهم إليها عنوة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

يطيش الإنسان عندما يجد خليفة مثل هذا استشعر الناس فى زمن خلافته بالمسرة والمعزة والقوة فى الدين وجماعة المسلمين ، وعلا به كعب أمرائهم وسمت نفوسهم بواسطة آدابه إلى كل عمل شريف ، وأفاضوا بالتحدث فيه وكانت

للخطباء والشعراء ميادين ومقامات يطول القول فى اختيارها ، وسيرته مجهولة عند كثير من الناس وعند ناشئة الشرق بأجمعهم ، فإن سئلوا عن ملك عالم مثلاً فأقرب ما يحدثونك به سيرة « كارلوس الأعظم » أو « لويس الرابع عشر » ، نعم ، إنهما كانا فى تعضيد العلم وتشييد أركانه آيتين ولكنهما ليسا بمفخر المسلم إن أراد الافتخار ، وأولى به أن يلم بخبر نفسه ودينه وملته وتاريخ مجده وحياة خلفاء الإسلام ، ففى ذلك من الخير الكثير ما يربو على ما علم ويزيد على ما حفظ ، فلا يكون مصداقاً لقول الشاعر :

كتاركـــة بيضـــــها بالعـــراء   وملحفة بيض أخرى جناحا

يصح أن تكون هذه الخلافة خاتمة خلفاء الأندلس ذات الدولة العظيمة والثروة الوافرة والمجد الباذخ ، لأنه لما توفى الحكم رحمه الله فأول ما حدث أن قتل المغيرة أخوه وهو المرشح للحكم ، وولى بعده ابن الحكم هشام وكان صغيراً سنه تسع سنين ليتم لابن أبى عامر فى الدولة ما يريد كما سيجىء تفصيله إن شاء الله، ثم ولى المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر وهو أول خلفاء الفتنة ، ثم انتهى الأمر بسقوط الدعوة للخلافة الأموية واستبدت ملوك الطوائف كما سيأتى .

كانت الدولة الأموية من أعظم الدول مكاناً وأشرفها موقعاً ظهرت فيها منافع كثيرة للحضارة والمدنية عامة وللأمة العربية خاصة ، يكاد السامع بها لا يصدق بزوالها كأنما عليها مسحة من بقاء ودوام زراعة متقنة وصناعة رائجة ، والمدارس تخرج حكماء وعلماء وقواداً ، وأبطالاً شداداً ، وفلاسفة مرشدين وكتبة وحسبة من أحسن الكتاب المقربين ، وشعراء مصنفين ، وصناعاً مهرة مبرزين فى فنون البناء والتصوير والنقش والتزيين لا تزال آثارهم تدل عليهم وتشهد بفضلهم ، وشهادة العدو المناوى أعدل شاهد .

حجت إليه ملوك الأرض قاطبة   يستشـــرفون معـــاليه بإجــــلال

يصـــد مطـــمع من ناواه مبتئساً   يعييه عن حــــذو تمثال بتمثـال

ولكن ما الحيلة فى احتدام حروب النفوس الشريرة ونزول بلاء سوء الأخلاق وانقراض الدول وانحطاطها بيد أهلها ، يحق للسائل أن يسأل : أين ذهبت هذه

العظمة ، وكيف وهى هذا الركن العظيم ، وما هو ذلك الشيء الجسيم الذى أدى لهذا الاختلال السريع فى الخلافة الإسلامية فى المغرب ؟ والظاهر أن السبب فى ظهور روح الشقاق والخروج على السلطان من الأمة والطمع فى الخلافة من كل من له وشيجة رحم بالخلفاء خروج الخلفاء أنفسهم عن المنهج الشرعى والانتهاج لغيره ، ولذلك نسب كثير من المحققين اختلال هذه الخلافة لعدول عبد الرحمن الأول « الداخل » عن البيعة وميله « لولاية العهد » فقد عهد بالخلافة لمن بعده من ولده ، وخص بها « هشاماً » الأول ، فكبر ذلك على أخويه الكبيرين سليمان وعبد الله وخرجا عليه ، وحاولا سلب الخلافة منه فتغلب عليهما وعفى عنهما ، ثم خرجا بعده على ولده الحاكم ، وطلبا قسمة البلاد معه ، ويقولون : إن نار هذه الفتنة كانت مضطرمة ، ولكن قوة الحاكم القائم بالملك أوقفت الناس عند حدها زمناً وردتهم على أعقابهم عهداً ، ثم لما انصرم هذا العصر حدث ما حدث ، وأنه لو جرى المسلمون كعادتهم فى الاختيار والانتخاب لسلموا من هذا البلاء ، فإن هذا الحادث أوجب فى نفوس العمال طمعاً كبيراً وحدث كل نفسه فى خلوته بما حدث ، فكانوا يخفون أمرهم فى إبان القوة خوفاً على مناصبهم ، ويظهرون بكمال الطاعة والانقياد فى ظاهر الأمر ، ويستعدون لنوال مقاصدهم سراً ، ويتربصون بالخلفاء الدوائر حتى أضرم القتال فى شمال البلاد ولاة سراقسطة ، وطليطلة ، وجوسقة ، ثم توالت الثورات حتى زلزلت المملكة بزلازلها وأورثتها خبالاً بوبالها وقويت الأمراض حتى أضعفت خراج الدولة «وكذلك الظلم كمين فى النفس القوة تظهره والضعف يخفيه » .

وفى الحقيقة : إن منهاج الخلافة الشرعى ، وهو جعل الحل والعقد والنكث والفتل وسائر الشئون العامة مقيدة بالشورى المتبعة يحبب للأمة معالى الأمور ، وهذه أيام الخلفاء الأربعة وعصرهم من أعدل الشواهد على ذلك والعدول عن سير هؤلاء الخلفاء يدفع بالأمة إلى السفاسف ، ويحط من مهابة صاحب السلطان ويخفض من شوكته ، ويستفحل فى عصره أمر الثوار والخارجين عليه ، لأنهم يلحظون من ذلك أنه انغمس فى النعيم المضعف للنفوس عن الحرب والجهاد ، وأهمل أمر الصانع والزارع ، وأن الأمة أصبحت فى مدته أتباعاً لكل ناعق ، وأن التربية القومية مفقودة بالمرة ، ويتبع هذا عدم تعميم التعليم والتهذيب اللذين هما من أهم ما جاء به الدين الحنيف الإسلامى ، فإذا وقع ذلك فليرتقب كل عناء وبلاء .

(ملوك الطوائف)

هذا العنوان يصح أن يطلق على الملوك من أصحاب الأطراف الذين يملكون كل فى بلاده على أثر انقراض دولة قوية ، وهو حال يعرض لكل دولة متى أحطت حكامها وأمراؤها من شأنها وأضعفت من صولتها حتى علم العدو بمكانها من الضعف ، وأصبح أمر انحطاطها ظاهراً والقائم عليها لا يقدر على جمع النفوس المفترقة وتأليف الأهواء المختلفة ، وكف الأكف العادية ، ورد جماح العزائم الفاسدة . يعرض لها بعد أن يفارقها حسن الرأى ، وجيد القريحة ، وسديد النظر ، وصحة اختبار الأحوال ، وحسن اختيار الرجال ، وغير ذلك من المعانى التى تتشعب من هذه الأصول الشريفة وتتعلق بهذه الفصول الرفيعة ، فإذا أصبح القائم غير ناهض بما حمل ولا مستقل بما قلد ولا نافذ الأمر فيما هو له أهل من الأمر والنهى ، ولا مؤد ما استودعه الله من أمانة الحكم على عباده ، فهناك الانقسام وهناك ملوك الطوائف .

ظهرت ملوك الطوائف على أثر انقراض « الدولة الرومانية » ، وقامت كذلك على أنقاض « الدولة الكيانية » فى بلاد الفرس بعد أن قتل « دارا » آخر ملوكها، واستولى « الاسكندر » على مملكته ، ونهض بها فى المغرب أيضاً أهل السوء الذين لا يميزون طالب الحق من منكره وجاحد الصدق من منتظره « حال اختلال الدولة الأموية » ، كانت ملوك الطوائف بالأندلس عقب انتثار عقد الخلافة الأموية وما انتاب هذه الخلافة من الضعف لآخر عهدها وما كان من خلع الجند لهشام آخر خلفائها ، واستبداد الأمراء والرؤساء والوزراء وكبار العرب والبربر بالأطراف واقتسامهم خططها وتغلب بعضهم على بعض ، واستقلال قوم على قوم ، واشتداد الفرقة بينهم ، وبلوغهم فى الجهل درجة أدت بهم إلى التزلف لأعدائهم ملوك أسبانيا فيدفعون الجزية لهم « عن يد وهم صاغرون » ، صوناً لملكهم « ساء ما يتوهمون » ، ويأنفون من ارتباطهم مع بعضهم وهم من عنصر واحد ودين واحد وملِّة واحدة . -

هدمت الدولة الأموية (بعد أن كانت أرفع الدول عماداً وأعظمها شأناً ،

وأضخمها سلطاناً ، وأكثرها جنوداً ، وأمدها سلطنة ، وأعلاها ذكراً ، وأبعدها اسماً) بسبب سوء الخلال ، وفساد الطباع ، وخصال السوء ، ودناءة الأخلاق ، وخبث السرائر والطباع التى خالطت القلوب بتغرير الدخلاء ، وفساد المفسدين من أعدائهم ما زالوا بهم حتى أنسوهم خاصة وعامة مكارم الأخلاق ، فلا وفاء بعهد ولا أمانة ، فانقلبوا على بعضهم وجعلوا بأسهم بينهم ، وفشت كراهة الأموى للقرشى ، وتحول الأمر من المضرى إلى اليمانى :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيهـا أمير المؤمنين ومنبر

تفرق ملوك الطوائف واقتسموا الأندلس ، فتجزأت بعد أن كانت مجتمعة ، وأصبح بأشبيلية وأعمالها « محمد بن عباد » وببطليوس وأعمالها « محمد بن عبد الله المعروف بالأفطس » ، وبطليطلة وأعمالها « ابن بعيش » ، وبسراقسطة وأعمالها « سليمان بن هود الجذامى » ، وبطرطوسة وأعمالها « لبيب العامرى » وببلنسية وأعمالها « المنصور المغافرى » ، وبالسهلة وأعمالها « عبود بن رزين البربرى » ، وبوانيه وأعمالها « الموفق العامرى » ، وبمرسية وأعمالها « بنو طاهر » وبالمرية وأعمالها « خيران العامرى » ، وبمالقة وأعمالها « بنو حمود » ، وبغرناطة وأعمالها « حبوس الصنهاجى » .

بهذه الصفة تفرقت دولة بنى أمية وتباهت ملوك الطوائف فى أحوال الملك (كأنها أحسنت صنعاً) ، فأصبحوا طرفاً فى الترف ونهاية فى الحضارة حتى قلدوا الخلفاء فى الألقاب والنعوت ، وجعلوا لهم حجاباً يتكلمون عنهم وهم وراء الستر ، وصح عليهم قول « شارل مارتيل » حينما فزع إليه سكان فرنسا ليستشيروه فى ما يفعلونه مع العرب فى عهد هشام بن عبد الملك سنة (١٠٥) «أمهلوا العرب حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا من المساكن ويتنافسوا فى الرئاسة ، ويستعين بعضهم على بعض وتفارقهم هذه الصفات التى تغنى عن كثرة العدد والقلوب التى دونها حصانة الدروع ، ثم خذوهم ببعضهم » .

أخذ ملك الإسلام فى الأندلس فى التضعضع وملوكه فى التفرق ، وحدث منهم ما أوجب علماء الأمة وأمناء الملّة أن تفتى بجواز الحرب معهم لانحرافهم عن الاستقامة ومساعدة بعضهم للأسبانيول ، وظهر فى أثناء ذلك أمر يوسف بن تاشفين ، فكتب إليه المعتمد بن عباد أمير أشبيلية يعلمه بحال الأندلس ويسأله

النصر والإعانة ، ثم طال به العهد لاشتغال يوسف بن تاشفين بالفتح ، فذهب إليه والتقى به ، وكان ما كان من دخوله الأندلس وحربه مع الفونس السادس ملك قشتالة فى واقعة من أكبر وأشهر وقائع المسلمين بالأندلس ، ووفقه لامتلاك بعض البلاد ونفوذ الكلمة فى المغرب ضابطاً لمصالح مملكته مؤثراً لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم ، حتى إن الإمام الغزالى رضى الله عنه لما سمع بسيرته عزم على لقائه ولكن الموت حال بينهما .

انتقل الملك بعد وفاته لأولاده ولم يكن فيهم من أهل الحوطة والصون ما يكفى لتنكيل أعداء الله والدولة طائحة فى هوة الهلاك ، فانقرضوا فى سنة (٥٤٢) ، وقامت دولة بنى الأحمر وهى آخر الدول الإسلامية فى بلاد الأندلس ، ومنها استرجع الأسبانيول ما كان بأيدى المسلمين ، وبهم انقرضت الدولة الإسلامية من أسبانيا ، لا بأس بأن نلم بعض الإلمام بشىء من الأسباب الظاهرة التى كانت سبباً لهذا التفرق والانقسام ، آل الحكم إلى هشام بن الحكم وهو صبى صغير لا يتجاوز عمره تسع سنين مضعف عاجز عن القيام بالملك ، فقام به كافله من وزراء أبيه « أبو عامر » ، فحجب الصبى عن الناس واستبد بالملك واستحكمت له صبغة الرئاسة ، وتحول الملك إليه وآثر به عشيرته وأبناءه ، وسما به أمل التغلب فمكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها وقطع بعضهم ببعض ، وصار كأعظم ما يكون ملكاً وسلطاناً .

هلك والخلفاء من بعده ملعبة لاعب ، لأنه جدد فى الأذهان طريقة الوثوب على مقاماتهم العالية ، وحمل الخلفاء على القناعة بالأبهة واللذات وأنساهم عهد الرجوليه ، فقامت الناس من بعده فخلعوا هشاماً وقتلوا ابنه ، ثم ولوا الحكومة عبد الرحمن المرتضى ، ثم قتلوه ، وهكذا المستظهر والمستكفى ، ثم خلعوا هشاماً وأمية بن عبد الرحمن الذى انتهت به الخلفاء فى الأندلس وعدتهم ستة عشر خليفة فى مائتين وأربع وثمانين سنة .

تدمع عين القارئ من شؤم ما جرى فى هذه البلاد وسوء ما وقع بها أكثر مما ضحكت سنه وانشرح صدره سروراً بدخول طارق بن زياد أولاً وموسى بن نصير ثانياً ، وما شيدا فيها من دعائم المجد وإعلام الهدى :

إن حـــزنا فى ســـاعة الفـــرقة   أضعاف سرور فى ساعة الميلاد

قاتل الله الجهل والشقاق ! أباد هذه المملكة بعد أن كانت مجتمع أعلام الأنام، ومقر سرير الخلافة ، ومركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، فليقس من كان شأنه القياس من الناس حالاً بحال وفتحاً بفتح لينكشف له ما حدث وليتحقق ما جرى.

قامت دولة بنى الأحمر المنسوبين إلى سيدنا سعد بن عبادة سيد الخزرج ونيران الدسائس مشتعلة بيد الأعداء ، وقد كثر أمر الثوار وما زال الفشل مستمراً بين العدو مرة وبين المسلمين وبعضهم أخرى ، والقائمون بالأمر بعضهم يقتل وبعضهم يخلع ، والمدن والقرى فى فتن وخطوب يطول شرحها والبلاد تنقص من أطرافها بسبب الخذلان الذى أدى إليه الشقاق حتى لم يبق لبنى الأحمر إلا غرناطة وأعمالها ، فأقبل العدو بجيشه المركب من جيوش قشتالة وأراغون تمده « أوروبا » فلم يكن منهم إلا أنهم أفسدوا الزرع وقطعوا الأشجار وهدموا القرى وشددوا الحصار على المسلمين إلى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج وانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل المطعوم والطاعم ، واشتد الغلاء وعظم البلاء ، فلم يكن من أهل العلم والوجاهة إلا ملاقاة السلطان أبى عبد الله ، فاجتمع الناس إليه ورأوا أن ارتكاب أخف الضررين بالصلح أولى ، واتفقوا على شروط عقدت ثم قرئت ووافقوا عليها وكتبت بها البيعة ، ونزل السلطان من غرناطة عن كرسيه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

اشتملت هذه الشروط على سبعة وستين شرطاً ، منها :

تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال ، وإقامة الشريعة على ما كانت عليه فلا يحكم على أحد إلا بشريعته ولا يولى على المسلمين نصرانى ولا يهودى، وأن لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، ولا يجبر أحد على ترك دينه ، ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل عما هو قائم به إلى آخر ما هو مدون بها من بقية الشروط التى وضعت باتفاق الطرفين .

وافق كلهم على هذه الشروط حتى صاحب رومة ووضع خط يده عليها ، ولكن الأسبانيول لم يراعوها إلا ريثما تقدموا فى الأمر ، وتمكنت قدمهم ، وعلموا أن لا ناصر للمسلمين من ظلمهم ، فعدلوا عن مراعاة تلك الشروط معهم وأذاقوهم أنواع العذاب والاضطهادات خصوصاً لما تشكلت المحكمة

المعروفة بمحكمة « التحرى القسيسى » « أنكيزسيون » فكان لها من القسوة ما يخجل كل من كان فى قلبه ذرة من المروءة والإنسانية .

أنشأت هذه المحاكم بأمر الباباوات « مصدر الرحمة والإحسان » خدمة للدين فى ظاهر الأمر ، ولكنها سياسية باطناً ، فأتى الأسبانيول أعمالاً بربرية وحشية فأحرقوا الزرع وهدموا الدور وغيروا وبدلوا بالمعالم الثابتة والآثار الجميلة ظلماً وعدواناً ، فإذا آثار المسلمين بتلك الأطراف بائدة لم يبق منها إلا ما صح عليه قول القائل :

كاد الليالى وكادته مجـــــالدة وانكف عاديهما من بعد تقتال

ثم انثنت وبها من صبره حرق وإن كســـته لكيد ثوب أثمال

كلت يد الأعداء عن إبادته كما ضعفت يد الدهر عن فنائه ، ففيه للآن بقية يندهش منها الإنسان تدل على المعارف والفنون التى كانت فى تلك البلاد تنشد بلسان الآثار والعمائر والمبانى والمدن والدساكر وعجائب الرسوم ودقة النقوش وإحكام البناء أن أهلها بلغوا النهاية من الارتقاء والغاية من مدارج العلاء ، وتنذر الناس بأن الجهل معول يقتلع الرواسى الشامخة ويحط إلى حضيض الثرى إذا كان العلم يرفعها للثريا .

لا يستطيع إنسان أن يجحد حسن حال أسبانيا : عصر الدول الإسلامية ، لأن مؤرخى الغرب اتفقوا مع مؤرخى العرب على أن الأندلس كانت فى مدة الدول الإسلامية فى رواج عظيم ، وأنها اشتهرت فى خلافة عبد الرحمن الثالث اشتهاراً لم يكن لها من قبل ولا أتى لها من بعد لاعتنائه بالمعارف ، وإنشائه المدارس ، وتنشيطه الصنائع ، وتوسيعه دائرة الصناعة حتى ذاع صيتها وتقاطرت إليها الطلاب من كل البلاد وسادت على العالم ، وقد اعتمدنا فى نقل هذه العبارة الصغيرة التى يؤخذ منها ما كانت عليه ، وما صارت إليه من دائرة المعارف فى الكلام على نقطة أسبانيا (ص ٣٣١ جزء ٣) لأننا متحققين بأنها تستقى وتستمد فى نقولها على الغالب من مؤلفات أجنبية .

قال المؤلف : (إن الصناعة فى أسبانيا كانت ذات رواج عظيم فى القرون الماضية ، واشتهرت بها فى القرون المتوسطة منسوجات الصوف والحرير المصنوعة

فى أشبيلية وغرناطة وبياسة ، والأجواخ المصنوعة فى مرسيلية ، والأسلحة المصنوعة فى طليطلة (غير أن جلاء اليهود والعرب من أسبانيا وحصر حقوق البيع والشراء بمصنوعات معامل الحكومة والرسومات العظيمة التى جعلتها الحكومة على مصنوعات المعامل الخصوصية التى كانت تتضاعف بطمع مأمورى الرسومات سببت سقوط الصناعة فى أسبانيا) .

كان فى أشبيلية فى القديم (١٦ ألف) محل لصناعة الحرير فعلتها (١٣٠ ألف) شخص ، ولحد سنة (١٦٧٣) لم يبق منها سوى (٤٠٥ محلات) . وكان فى شقوبية معامل يخرج منها سنوياً (٢٥ ألف) شقة من الحرير ، وفى سنة (١٧٨٨) لم يخرج منها إلا (٤٠٠) شقة فقط . ا هـ .

وعلى هذا القدر يقاس ، والواقف على تواريخ أسبانيا يعلم ما كان لليهود فيها من سمو المقام والتقدم فى الآداب أزمان العرب والإسلام ، وأن الكثيرين منهم كانوا يتقنون العلوم العبرانية أى إتقان ، ولم يقل أحد بأن العرب أذاقوهم مرارة الجلاء عن بلادهم ، كما وقع ذلك لهم فى عهد الحكومة الأسبانيولية ، بل وقع الأمر على العكس ، فإن المؤرخين على إجماع بأن أعظم الأسباب التى سهلت لليهود والنصارى سبل الانضمام والارتباط فى هذه البلاد ضد العرب هى أن الدول الإسلامية حفظت لهم استقلالهم فلم يعسر عليهم أن يكونوا مملكة بعد ، ومن هذا أيضاً ما فعلته الدولة العلية العثمانية مع تبعتها من غير المسلمين فى الروملى وغيره ، حفظت لهم كيانهم فضلاً عن استقلالهم ، فلما وثبوا للخروج عليها بإغراء الدول لم يجدوا ما يعوقهم عن العمل لغرضهم ، لأنهم مجتمعون متحدون .

❊ ❊ ❊



الكشافات التاريخية

الخلفاء الأمويون

١ - معاوية بن أبى سفيان (٤١ هـ - ٦٦١م) .

٢ - يزيد بن معاوية بن أبى سفيان (٦٠ هـ - ٦٨٠م) .

٣ - معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

● ثم انتقلت الخلافة إلى الفرع المروانى :

١ - مروان بن الحكم ويطلق عليه « مروان الأول » (٦٤ هـ - ٦٨٣م) .

٢ - عبد الملك بن مروان : يعرف بأبى الخلفاء (٦٥ هـ - ٦٨٥م) .

٣ - الوليد بن عبد الملك بن مروان « الوليد الأول » (٨٦ هـ - ٧٠٥م) .

٤ - سليمان بن عبد الملك بن مروان (٩٦ هـ - ٧١٥م) .

٥ - عمر بن عبد العزيز « رضى الله عنه » (٩٩ هـ - ٧١٧م) .

٦ - يزيد بن عبد الملك بن مروان « يزيد الثانى » (١٠١ هـ - ٧٢٤م) .

٧ - هشام بن عبد الملك بن مروان (١٠٥ هـ - ٧٢٤م) .

٨ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ هـ - ٧٤٣م) .

٩ - يزيد الثانى (١٢٦ هـ - ٧٤٤م) .

١٠ - مروان بن محمد « مروان الثانى » الحمار (١٣٢ هـ - ٧٧٤ ، ٧٥٠م).

* *

فى عهد الدولة العباسية

١ - صالح بن على بن عبد الله بن العباس : فى مستهل المحرم سنة (١٣٣هـ).

٢ - أبو عون بن عبد الملك بن يزيد الخراسانى مولى هناء : فى مستهل شعبان سنة (١٣٣ هـ) .

٣ - صالح بن على للمرة الثانية : ٢٤ ربيع الثانى سنة (١٣٦ هـ) .

٤ - أبو عون « للمرة الثانية » : فى ٤ رمضان سنة (١٣٧ هـ) .

٥ - موسى بن كعب بن عيينة بن عائشة بن عمر التميمى : فى ١٦ ربيع الثانى سنة (١٤١ هـ) .

٦ - محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعى : فى ٢٥ ذى الحجة سنة (١٤١هـ).

٧ - نوفل بن محمد بن الفرات : فى سنة (١٤٢ هـ) .

٨ - حميد بن قحطبة بن شبيب بن خالد بن معدان الطائى : فى ٥ رمضان سنة (١٤٣ هـ) .

٩ - أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبى : فى ١٥ ذى القعدة سنة (١٤٤هـ).

١٠ - نائبه عبد الرحمن بن يزيد : فى سنة (١٤٧ هـ) .

١١ - محمد بن سعيد : فى ربيع الثانى (١٥٢ هـ) .

١٢ - عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج : فى ١٨ ربيع الثانى سنة (١٥٢ هـ) .

١٣ - محمد بن عبد الرحمن « أخو السابق » : فى صفر سنة (١٥٥ هـ) .

١٤ - عبد الصمد بن على بن عبد الله بن العباس فى ١٥ شوال سنة (١٥٥هـ).

١٥ - موسى بن على بن رباح اللخمى : فى شوال سنة (١٥٥ هـ) .

١٦ - مطر ، مولى المنصور : فى سنة (١٥٩ هـ) .

١٧ - أبو ضمره محمد بن سليمان : فى سنة (١٥٩ هـ) .

١٨ - عيسى بن لقمان بن محمد الجمحى : فى ١٦ من ذى الحجة سنة (١٦١هـ) .

١٩ - أبو ضمره محمد بن سليمان « للمرة الثانية » : فى سنة (١٦٢ هـ) .

٢٠ - سلمة بن رجا : فى سنة (١٦٢ هـ) .

٢١ - واضح مولى المهدى (توفى سنة ١٦٩ هـ) : فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة (١٦٢ هـ) .

٢٢ – منصور بن يزيد بن منصور الرعينى : فى ١١ رمضان سنة (١٦٢ هـ) .

٢٣ – أبو صالح يحيى بن داود بن ممدود الحرشى : فى ذى الحجة سنة (١٦٢هـ) .

٢٤ – سالم بن سوادة التميمى : فى ١٠ المحرم سنة (١٦٤ هـ) .

٢٥ – إبراهيم بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس : فى ١١ المحرم سنة (١٦٥ هـ) .

٢٦ – موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمى : فى ٧ ذى الحجة سنة (١٦٧هـ) .

٢٧ – عسامة بن عمرو بن علقمة المعافرى : ٢٦ ذى الحجة سنة (١٦٨ هـ) .

٢٨ – الفضل بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس : ٢٩ المحرم سنة (١٦٩هـ) .

٢٩ – على بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس : فى شوال سنة (١٦٩هـ) .

٣٠ – موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على : فى ٢٦ ربيع الأول سنة (١٧١ هـ) .

٣١ – مسلمة بن يحيى بن قرة البجلى : فى ١٤ رمضان سنة (١٧٢ هـ) .

٣٢ – محمد بن زهير بن المسيب الضبى الأزدى : فى ٥ شعبان سنة (١٧٣هـ) .

٣٣ – داود بن يزيد بن حاتم المهلبى : فى ١٤ المحرم سنة (١٧٤ هـ) .

٣٤ – موسى بن عيسى « للمرة الثانية » : فى ٧ صفر سنة (١٧٥ هـ) .

٣٥ – إبراهيم بن صالح « للمرة الثانية » : فى صفر سنة (١٧٦ هـ) .

٣٦ – جعفر بن يحيى بن برمك حاكم فخرى : نائبه عمر بن مهران سنة (١٧٦هـ) .

٣٧ – عبد الله بن المسيب بن الزبير الضبى : فى ١٩ رمضان سنة (١٧٦ هـ) .

٣٨ – إسحاق بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس : فى مستهل رجب سنة (١٧٧ هـ) .

٣٩ – هرثمة بن أعين : فى ٢ شعبان سنة (١٧٨ هـ) .

٤٠ – عبد الملك بن صالح بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس حاكم فخرى : فى ١٢ شوال سنة (١٧٨ هـ) .

٤١ – نائبه للمرة الثانية عبد الله بن المسيب : فى سنة (١٧٨ هـ) .

٤٢ – عبيد الله بن المهدى : فى ١٢ المحرم سنة (١٧٩ هـ) .

٤٣ – موسى بن عيسى « للمرة الثالثة » حاكم إسمى بحق : فى ٣ رمضان سنة (١٧٩ هـ) .

٤٤ – نائبه ولده يحيى بن موسى : سنة (١٧٩ هـ) .

٤٥ – عبيد الله بن المهدى للمرة الثانية : فى ٧ جمادى الآخرة سنة (١٨٠هـ).

٤٦ – إسماعيل بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس : فى ٧ رمضان سنة (١٨١ هـ) .

٤٧ – إسماعيل بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله : فى ١٦ جمادى الآخرة سنة (١٨٢ هـ) .

٤٨ – الليث بن الفضل الأبيوردى : فى ٢٥ شوال سنة (١٨٢ هـ) .

٤٩ – أحمد بن إسماعيل بن على بن عبد الله بن العباس : فى ٢٥ جمادى الآخرة سنة (١٨٧ هـ) .

٥٠ – عبيد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن على المعروف بابن زينب : فى ١٥ شوال سنة (١٨٩ هـ) .

٥١ – الحسين بن جميل : فى ١٠ رمضان سنة (١٩٠ هـ) .

٥٢ – مالك بن دلهم بن عيسى الكلبى : فى ٢٢ ربيع الآخر سنة (١٩٢ هـ) .

٥٣ – الحسن بن التختاح بن التختكان : فى ٣ ربيع الأول سنة (١٩٣ هـ) .

٥٤ – حاتم بن هرثمة بن أعين : فى ٢٢ ربيع الأول سنة (١٩٤ هـ) .

٥٥ – جابر بن الأشعث بن يحيى الطائى : فى ٢٥ جمادى الآخرة سنة (١٩٥هـ) .

٥٦ - ربيعة بن قيس « من قبل الخليفة الأمين » : فى سنة (١٩٦ هـ) .

٥٧ - عباد بن محمد بن حيان البلخى من قبل المأمون : فى ٨ رجب سنة (١٩٦هـ) .

٥٨ - المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعى : فى ١٥ ربيع الأول سنة (١٩٨هـ).

٥٩ - العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على « توفى فى جمادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ» : فى ٢٧ شوال سنة (١٩٨ هـ) .

٦٠ - المطلب بن عبد الله « للمرة الثانية » : ١٤ المحرم سنة (١٩٩ هـ) .

٦١ - السرى بن الحكم بن يوسف الزطى : فى مستهل رمضان سنة (٢٠٠هـ).

٦٢ - أبو نصر محمد بن السرى : فى ٩ شعبان سنة (٢٠٦ هـ) .

٦٣ - عبد الله بن طاهر بن الحسين : فى ٥ المحرم سنة (٢١١ هـ) .

٦٤ - المعتصم حاكم فخرى : فى ١١ ذى القعدة سنة (٢١٣ هـ) .

٦٥ - عيسى بن يزيد الجلودى : فى ١٧ ذى القعدة سنة (٢١٣ هـ) .

٦٦ - عمير بن الوليد التميمى البدغيسى « توفى فى ١٦ ربيع الثانى سنة ٢١٤هـ»: فى ١٩ صفر سنة (٢١٤ هـ) .

٦٧ - عيسى بن يزيد « للمرة الثانية » : فى ٤ رجب سنة (٢١٤ هـ) ، دخل المعتصم الفسطاط فى ٢١ شعبان سنة (٢١٤ هـ) .

٦٨ - عبدويه بن جبله : فى مستهل المحرم سنة (٢١٥ هـ) .

٦٩ - عيسى بن المنصور بن موسى الرافعى : فى مستهل المحرم سنة (٢١٦هـ).

٧٠ - عبد الملك نصر بن عبد الله الصفدى المعروف بكيدر : فى صفر سنة (٢١٧هـ) .

٧١ - المظفر بن نصر بن عبد الله كيدر : فى جمادى الأولى سنة (٢١٩ هـ) .

٧٢ - أبو جعفر أشناش : من سنة (٢١٩ هـ) إلى سنة (٢٣٠ هـ) .

٧٣ - موسى بن أبى العباس ثابت الحنفى : فى مستهل رمضان سنة (٢١٩هـ).

٧٤ - مالك بن كيدر الصفدى : فى ٢٢ ربيع الأول سنة (٢٢٤ هـ) .

٧٥ - على بن يحيى أبو الحسن الأرمنى : فى ٩ ربيع الثاى سنة (٢٢٦ هـ) .

٧٦ - عيسى بن المنصور الرافعى « للمرة الثانية » : فى ١٧ المحرم سنة (٢٢٩هـ).

٧٧ - إيتاخ الترى : من سنة (٢٣٠ هـ) إلى (٢٣٥ هـ) .

٧٨ - هرثمة بن النضر الجبلى : فى ٦ رجب سنة (٢٣٣ هـ) .

٧٩ - حاتم بن هرثمة بن النضر « ابن السابق » : فى ٦ رمضان سنة (٢٣٤هـ).

٨٠ - على بن يحيى « للمرة الثانية » : فى ٦ شوال سنة (٢٣٤ هـ) .

٨١ - محمد بن جعفر ، المنتصر : من سنة (٢٣٥ هـ) إلى سنة (٢٤٢ هـ) .

٨٢ - إسحاق بن يحيى بن معاذ الخطلانى : فى ١١ ذى القعدة سنة (٢٣٥هـ).

٨٣ - خوط عبد الواحد بن يحيى بن المنصور : فى ٢٢ ذى القعدة سة (٢٣٦هـ).

٨٤ - عنبسة بن إسحاق بن شامر الضبى : فى ٥ ربيع الثانى سنة (٢٣٨ هـ) .

٨٥ - الفتح بن خاقان بن أرتق التركى : من سنة (٢٤٢ هـ) إلى سنة (٢٤٧هـ).

٨٦ - يزيد بن عبد الله بن دينار التركى : فى ٢٠ رجب سنة (٢٤٢ هـ) .

٨٧ - مزاحم بن خاقان بن أرتق التركى « توفى فى ٩ ربيع الثانى سنة ٢٥٤هـ»: فى ٣ ربيع الأول سنة (٣٥٣ هـ) .

٨٨ - أحمد بن مزاحم بن خاقان التركى : فى ٩ ربيع الثانى سنة (٢٥٤ هـ).

٨٩ - يركوج « أو ارجور أو أرغور » بن أولع طرخان التركى : فى جمادى الآخرة سنة (٢٥٤ هـ) ، ظل فى هذا المنصب حتى ٢٣ رمضان سنة (٢٥٤ هـ)، وتوفى بمصر سنة (٢٥٨ هـ) .

* *

الطولونيون

٩٠ - أبو موسى عيسى بن محمد النوشرى « توفى فى ٢٥ شعبان سنة ٢٩٧هـ»: فى ١٤ جمادى الأولى سنة (٢٩٢ هـ) .

٩١ - أبو عبد الله بن محمد بن على الخلنجى « ثائر » فى ٢٦ ذى القعدة سنة (٢٩٢ هـ) .

٩٢ - أبو العباس بن بسطام « توفى بعد نصيبه بعشرة أيام » : فى مستهل شوال سنة (٢٩٧ هـ) .

٩٣ - أبو منصور تكين بن عبد الله الخزرى الخاصة « توفى سنة ٣٢١ هـ » : فى ١١ شوال سنة (٢٩٧ هـ) .

٩٤ - أبو الحسن ذكا الأعر الرومى : فى ١٢ صفر سنة (٣٠٣ هـ) .

٩٥ - تكين بن عبد الله « للمرة الثانية » : فى ٨ ربيع الأول سنة (٣٠٧ هـ) .

٩٦ - أبو قابوس محمود بن حمك (أو حمل) « مكث ثلاثة أيام » : فى ١٣ ربيع الأول سنة (٣٠٧ هـ) .

٩٧ - تكين بن عبد الله « للمرة الثالثة » فى ١٦ ربيع الأول سنة (٣٠٩ هـ) .

٩٨ - أبو الحسن هلال بن بدر ٦ ربيع الثانى سنة (٣٠٩ هـ) .

٩٩ - أبو العباس أحمد بن كيغلغ : فى مستهل جمادى الأولى سنة (٣١١هـ).

١٠٠ - تكين بن عبد الله « للمرة الرابعة توفى فى ١٦ ربيع الأول سنة ٣٢١هـ»: فى ٣ ذى القعدة سنة (٣١١ هـ) .

١٠١ - محمد بن تكين : فى ١٦ ربيع الأول سنة (٣٢١ هـ) .

١٠٢ - أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد : فى ٧ رمضان سنة (٣٢١ هـ) .

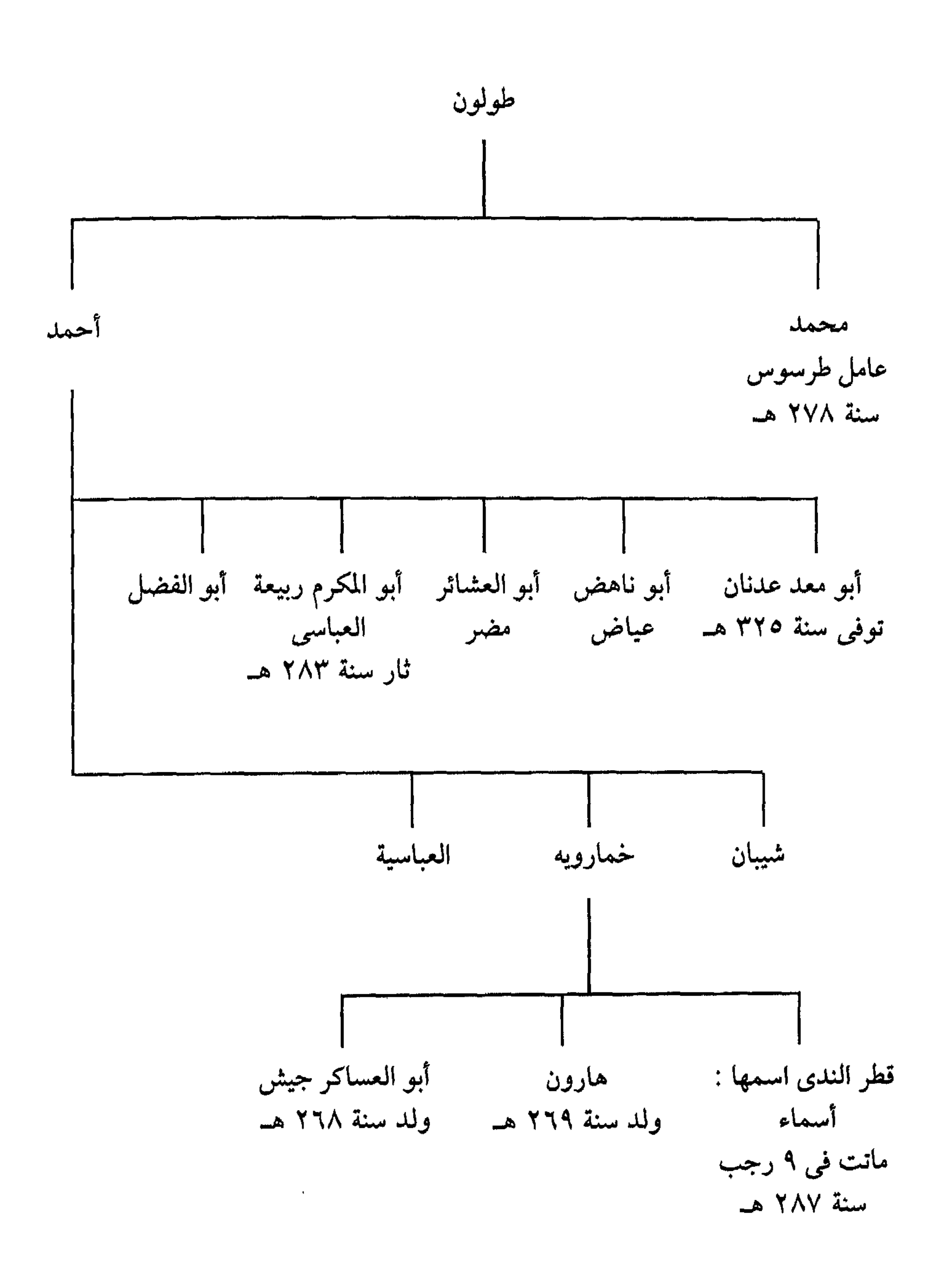
١٠٣ - أحمد بن كيغلغ « للمرة الثانية » : فى ٧ شوال سنة (٣٢١ هـ) .

١٠٤ - محمد بن طغج الإخشيد : فى ٢٣ رمضان سنة (٣٢٣ هـ) .

* الإخشيديون * الفاطميون

* الأيوبيون * المماليك

* الحكم العثمانى : باشوات مصر


طولون
محمد
عامل طرسوس
سنة ٢٧٨ هـ
أحمد
أبو معد عدنان
توفى سنة ٣٢٥ هـ
أبو ناهض
عياض
أبو العشائر
مضر
أبو المكرم ربيعة
العباسى
ثار سنة ٢٨٣ هـ
أبو الفضل
شيبان
خمارويه
العباسية
قطر الندى اسمها :
أسماء
ماتت فى ٩ رجب
سنة ٢٨٧ هـ
هارون
ولد سنة ٢٦٩ هـ
أبو العساكر جيش
ولد سنة ٢٦٨ هـ

أولاً : العصر العباسى الأول

١٣٢ - ١٣٣٢ هـ/ ٧٥٠ - ٨٤٧ م

العباسى

عبد الله

على

محمد — داود — عبد الله — موسى — صالح — سليمان

(أبناء عبد الله:)

إبراهيم — ١ - السفاح — ٢ - المنصور

(ابن المنصور:)

٣ - المهدى

(أبناء المهدى:)

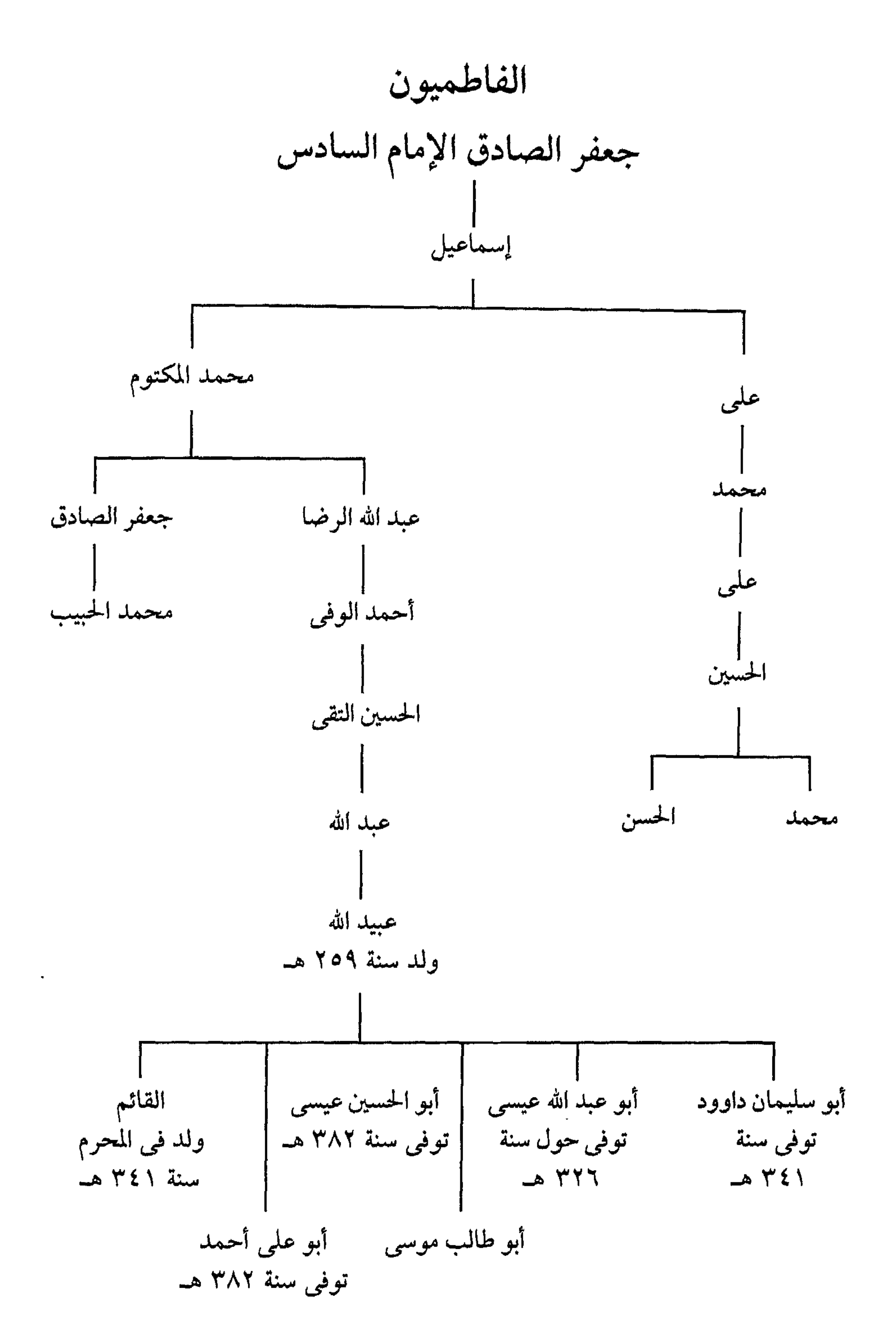
٤ - الهادى — ٥ - الرشيد

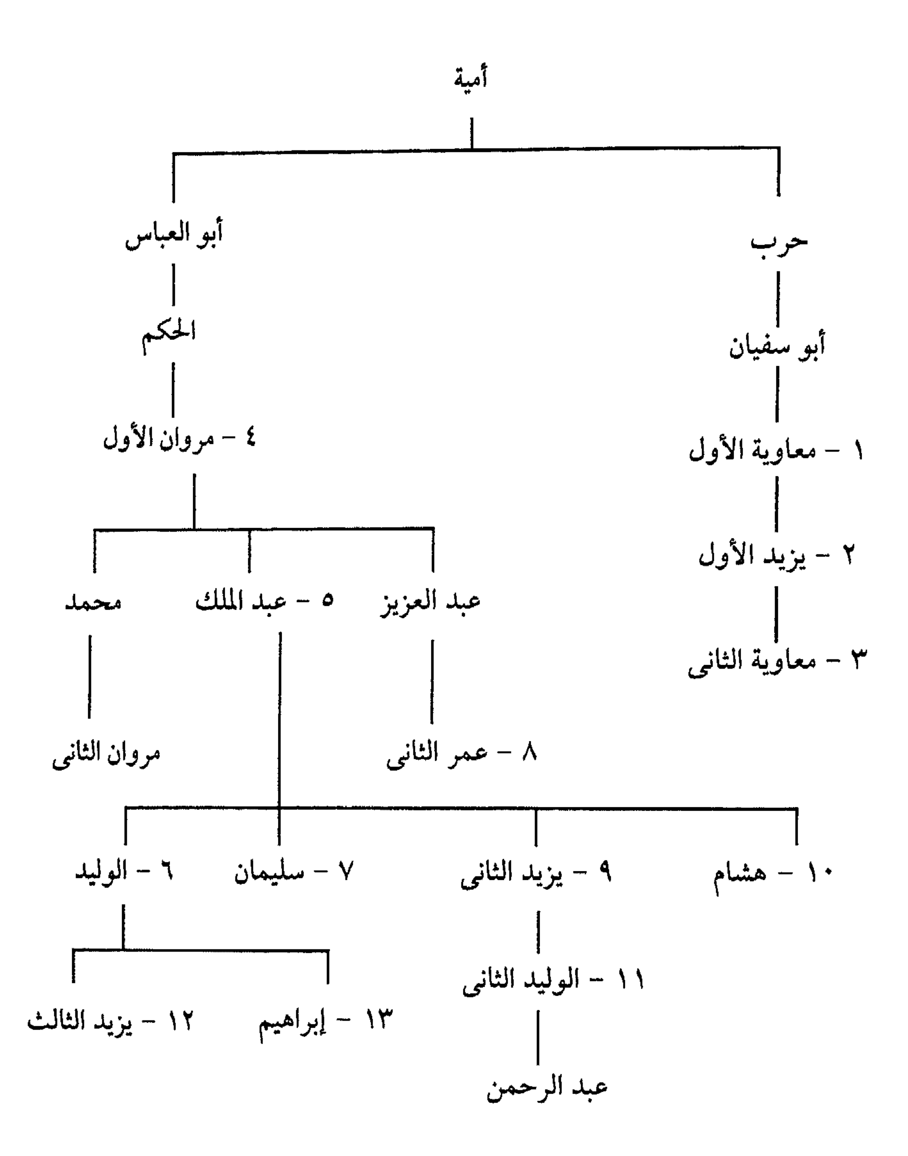
(أبناء الرشيد:)

٦ - الأمين — ٧ - المأمون — ٨ - المعتصم

(أبناء المعتصم:)

الواثق — المتوكل


الفاطميون
جعفر الصادق الإمام السادس
إسماعيل
محمد المكتوم
على
محمد
على
الحسين
محمد
الحسن
جعفر الصادق
محمد الحبيب
عبد الله الرضا
أحمد الوفى
الحسين التقى
عبد الله
عبيد الله
ولد سنة ٢٥٩ هـ
أبو سليمان داوود
توفى سنة
٣٤١ هـ
أبو عبد الله عيسى
توفى حول سنة
٣٢٦ هـ
أبو الحسين عيسى
توفى سنة ٣٨٢ هـ
القائم
ولد فى المحرم
سنة ٣٤١ هـ
أبو طالب موسى
أبو على أحمد
توفى سنة ٣٨٢ هـ


أمية
حرب
أبو العباس
أبو سفيان
الحكم
١ - معاوية الأول
٤ - مروان الأول
٢ - يزيد الأول
٣ - معاوية الثانى
عبد العزيز
٥ - عبد الملك
محمد
٨ - عمر الثانى
مروان الثانى
١٠ - هشام
٩ - يزيد الثانى
٧ - سليمان
٦ - الوليد
١١ - الوليد الثانى
١٣ - إبراهيم
١٢ - يزيد الثالث
عبد الرحمن

العصر العباسى الثانى

خلفاء العصر العباسى الثانى

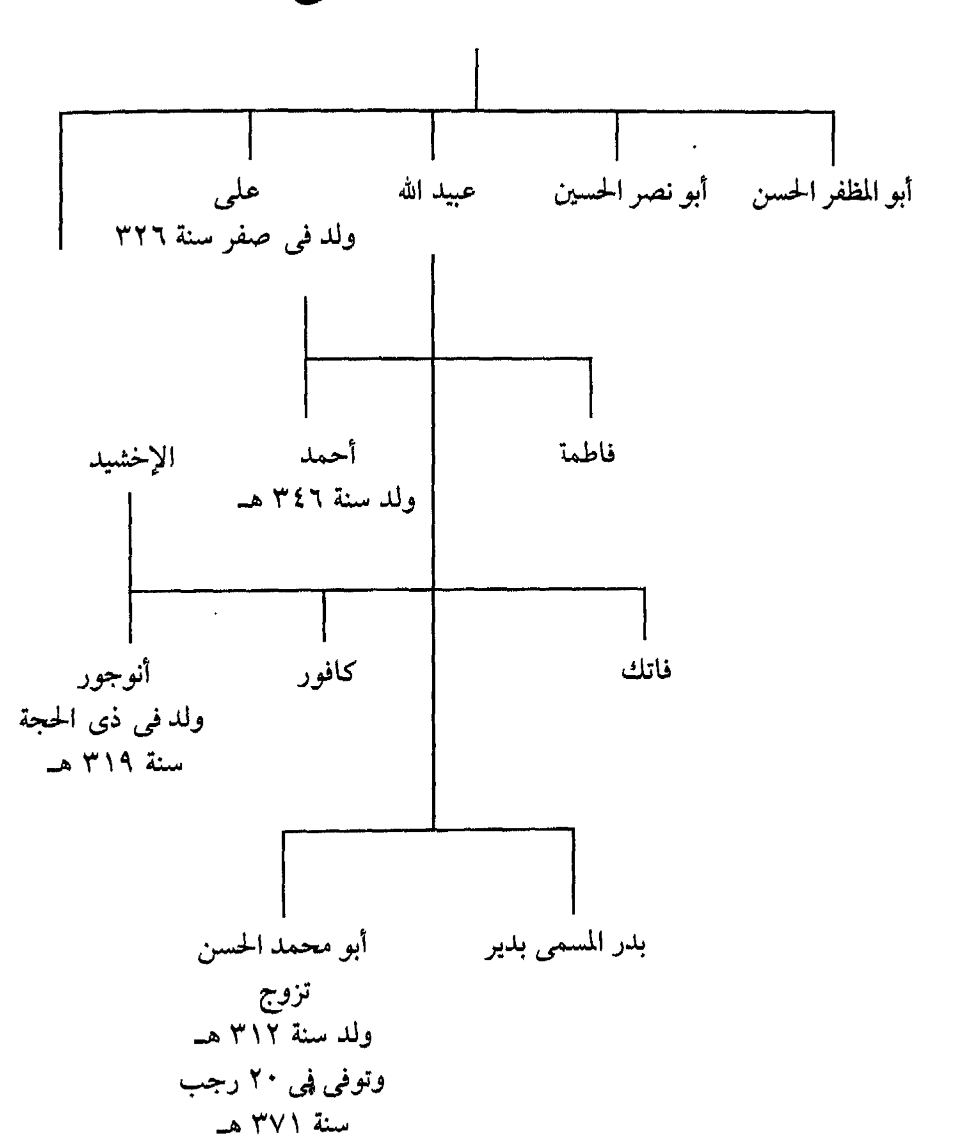
المتوكل	٢٣٢ هـ	٨٤٧ م
المنتصر	٣٤٧ هـ	٨٦١ م
المستعين	٢٤٨ هـ	٨٦٢ م
المعتز	٢٥٢ هـ	٨٦٦ م
المهتدى	٢٥٥ هـ	٨٦٩ م
المعتمد	٢٥٦ هـ	٨٧٠ م
المعتضد	٢٧٩ هـ	٨٩٢ م
المكتفى	٢٨٩ هـ	٩٠٢ م
المقتدر	٢٩٥ هـ	٩٠٨ م
القاهر	٣٢٠ هـ	٩٣٢ م
الراضى	٣٢٢ هـ	٩٣٤ م
المتقى	٣٢٠ هـ	٩٤٠ م
المستكفى	٣٣٣ هـ	٩٤٤ م
المطيع	٣٣٤ هـ	٩٤٦ م
الطائع	٣٦٣ هـ	٩٧٤ م
القادر	٣٨١ هـ	٩٩١ م
القائم	٤٢٢ هـ	١٠٣١ م
المقتدى	٤٦٧ هـ	١٠٧٥ م
المستظهر	٤٨٧ هـ	١٠٩٤ م
المسترشد	٥١٢ هـ	١١١٨ م

الراشد	٥٢٩ هـ	١١٣٥ م
المقتفى	٥٣٠ هـ	١١٣٦ م
المستنجد	٥٥٥ هـ	١١٦٠ م
المستضئ	٥٦٦ هـ	١١٧٠ م
الناصر	٥٧٥ هـ	١١٨٠ م
الظاهر	٦٢٢ هـ	١٢٢٥ م
المستنصر	٦٢٣ هـ	١٢٢٦ م
المستعصم	٦٤٠ هـ-٦٥٨ هـ	١٢٤٢م - ١٣٥٨م

* * *

جف بن بلتكين بن فوران بن فورى بن خاقان

أبو محمد عبد الرحمن بن طغج



الخلفاء الراشدون

١ - أبو بكر الصديق	رضى الله عنهم	١١ هـ	٦٣٢م
٢ - عمر بن الخطاب	رضى الله عنهم	١٣ هـ	٦٣٤م
٣ - عثمان بن عفان	رضى الله عنهم	٢٣ هـ	٦٤٤م
٤ - على بن أبى طالب	رضى الله عنهم	٤٠ هـ	٦٥٦ - ٦٦١م

٥ - الحسن بن على (رضى الله عن) وقد تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان .

* *

الإخشيديون

١ - أبو بكر محمد الإخشيد بن طغج « توفى فى ٢١ ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ»: تقلد فى ٢٣ رمضان سنة (٣٣٣ هـ) .

٢ - أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد « توفى فى ٧ ذى القعدة سة ٣٤٩ هـ »: تقلد فى ٢١ ذى الحجة سنة (٣٣٤ هـ) .

٣ - أبو الحسن على بن الإخشيد « توفى فى ١١ من المحرم سنة ٣٥٥ هـ » : تقلد فى ٢٠ ذى القعدة سنة (٣٤٩ هـ) .

٤ - أبو المسك كافور « خادم الإخشيد » توفى فى ٢٠ جمادى الأولى سنة (٣٥٧هـ) : تقلد فى ١١ المحرم سنة (٣٥٥ هـ) .

٥ - أبو الفوارس أحمد بن على : تقلد فى جمادى الأولى سنة (٣٥٧ هـ) ، استولى جوهر القائد الفاطمى على مصر فى ١٧ شعبان سنة (٣٥٨ هـ) .

* *

الطولونيون

١ - أحمد بن طولون أبو العباس « أعلن استقلاله وصرب السكة سنة ٢٦٦ هـ»: تقلد فى ٢٣ رمضان سنة (٢٥٤ هـ) .

٢ - أبو الجيش خمارويه بن أحمد « اغتيل قرب دمشق فى ذى الحجة سنة ٢٨٢هـ » : تقلد سنة (٢٧٠ هـ) .

٣ - أبو العساكر جيش بن خمارويه « خلع في ١٠ جمادى الآخرة سنة ٢٨٣ هـ ثم قتل » : تقلد سنة (٢٨٢ هـ) .

٤ - أبو موسى هارون بن خمارويه « توفى فى ١٨ صفر سنة ٢٩٢ هـ » : تقلد فى جمادى الأولى سنة (٢٨٣ هـ) .

٥ - أبو المناقب شيبان بن أحمد : تقلد فى ١٨ صفر سنة (٢٩٢ هـ) .

* *

الفاطميون

أبو عبد الله الشيعى (٢٨٨ هـ - ٢٩٨ هـ)

١ - المهدى أبو محمد عبيد الله « توفى فى ١٤ ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ » : تقلد فى ٤ ربيع الثانى سنة (٢٩٧ هـ) .

٢ - القائم أبو القاسم محمد « عبد الرحمن » توفى فى ١٤ ربيع الأول سنة (٣٢٢ هـ) : تقلد فى ١٤ ربيع الأول سنة (٣٢٢ هـ) .

٣ - المنصور أبو طاهر إسماعيل « توفى فى ٢٩ شوال سنة ٣٤١ هـ » : تقلد فى ١٣ شوال سنة (٣٣٤ هـ) .

٤ - المعز أبو تميم معد « توفى فى ٣ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ » : تقلد فى مستهل ذى القعدة سنة (٣٤١ هـ) .

فتحت مصر فى شعبان سنة (٣٥٨ هـ) ، دخل المعز لدين الله الفاطمى فى رمضان سنة (٣٦٢ هـ) .

٥ - العزيز أبو منصور نزار « توفى فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ » : تقلد فى ٥ ربيع الثانى سنة (٣٦٥ هـ) .

٦ - الحاكم أبو على المنصور « اختفى فى ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ » : تقلد فى ٢٩ رمضان سنة (٣٨٦ هـ) .

٧ - الظاهر ، أبو الحسن على « توفى فى ١٥ شعبان سنة ٤٢٧ هـ » : تقلد فى ١٠ ذى الحجة سنة (٤١١ هـ) .

٨ - المستنصر أبو تميم معد « توفى فى ١٨ ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ » : تقلد فى ١٥ شعبان سنة (٤٢٧ هـ) .

٩ - المستعلى أبو القاسم أحمد « توفى فى ١٤ صفر سنة ٤٩٥ هـ » : تقلد فى ذو الحجة سنة (٤٨٧ هـ) .

١٠ - الآمر أبو على المنصور « اغتيل فى ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ » : تقلد فى ١٤ صفر سنة (٤٩٥ هـ) .

فترة شغور من ٢ ذى القعدة سنة (٥٢٤ هـ) إلى ١٥ المحرم سنة (٥٢٦ هـ) ، والخليفة المزعوم أبو القاسم المنتظر « القائم فى آخر الزمان أو المهدى حجة الله على العالمين » تحت وصاية الوزير أبى على أحمد بن الأفضل .

١١ - الحافظ أبو الميمون عبد المجيد « توفى فى ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ » : تقلد فى ١٥ المحرم سنة (٥٢٥ هـ) .

١٢ - الظافر أبو المنصور إسماعيل « اغتيل فى ٣٠ المحرم سنة ٥٤٩ هـ » : تقلد فى ٦ جمادى الآخرة سنة (٥٤٤ هـ) .

١٣ - الفائز أبو القاسم عيسى « توفى فى ١٧ رجب سنة ٥٥٥ هـ » : تقلد فى مستهل صفر سنة (٥٤٩ هـ) .

١٤ - العاضد أبو محمد عبد الله « خلع فى ٣ المحرم فى ١٠ المحرم سنة ٥٦٧هـ » : تقلد فى رجب سنة (٥٥٥ هـ) ، أقيمت الخطبة « للعباسيين » .

* *

وزراء الفاطميين فى عهد العزيز

١ - أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن كلس اليهودى « ولد سنة ٣١٨ هـ ، أسلم فى ١٨ شعبان سنة ٣٥٦ هـ » : تقلد فى سنة (٣٦٥ هـ).

٢ - جبر بن القاسم : تقلد فى شوال سنة (٣٧٣ هـ) .

٣ - ابن كلس « للمرة الثانية » توفى فى ٥ ذى الحجة سنة (٣٨٠ هـ) : تقلد فى المحرم سنة (٣٧٣ هـ) .

٤ - أبو الحسن على بن عمر العداس دون لقب وزير : تقلد فى المحرم سنة (٣٨١ هـ) .

٥ - أبو الفضل جعفر ابن الفرات « الثالث » : تقلد فى المحرم سنة (٣٨٣ هـ).

٦ – أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن بازيار الموصلي : تقلد في سنة (٣٨٤ هـ).

٧ – أبو محمد الحسن بن عمار بن أبي الحسين أمين الدولة : تقلد في سنة (٣٨٥هـ) .

٨ – الفضل بن الصالح الوزيري : تقلد بضعة أيام .

٩ – عيسى بن نسطورس « نصراني » حتى رمضان سنة (٣٨٦ هـ) : تقلد في ذو القعدة سنة (٣٨٥ هـ) .

* *

في عهد الحاكم بأمر الله

١ – الأستاذ أبو الفتوح برجوان الصقلبي « اغتيل في ٢٦ ربيع الثاني سنة ٣٩٠هـ » : تقلد في رمضان سنة (٣٨٦ هـ) .

٢ – أبو العلاء فهد بن إبراهيم الرئيس « اغتيل في ٨ جمادى الآخرة سنة ٣٩٣هـ » : تقلد في ربيع الثاني سنة (٣٩٠ هـ) .

٣ – أبو الحسن علي بن عمر العداس ، « للمرة الثانية » « ولي شهراً ثم اغتيل في رجب سنة ٣٩٣ هـ » : تقلد في جمادى الآخرة سنة (٣٩٣ هـ) .

٤ – أبو الحسن علي بن الحسين بن المغربي الثاني « اغتيل في ٣ ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ» : تقلد في شعبان سنة (٣٩٣ هـ) .

٥ – الحسين بن طاهر الوزان أمين الأمناء « اغتيل في جمادى الآخرة سنة ٤٠٥هـ» : تقلد في ١٩ ربيع الأول سنة (٤٠٣ هـ) .

٦ – عبد الرحمن بن أبي السيد « اغتيل بعد اثنين وستين يوماً من توليته » : تقلد في جمادى الآخرة سنة (٤٠٥ هـ) .

٧ – أبو العباس الفضل بن جعفر بن الفرات الرابع « اغتيل بعد خمسة أيام من توليته » .

٨ – أبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح الكتامي قطب الدين سيف الدولة ذو الرياستين .

* *

فى عهد الظاهر

١ – أبو الحسين عمار بن محمد خطير الملك رئيس الرؤساء : تقلد فى ذو الحجة سنة (٤١١ هـ) .

٢ – أبو الفتوح موسى بن الحسين بدر الدولة « خلع ثم اغتيل فى ٢٠ شوال سنة ٤١٣ هـ » : تقلد فى ربيع الأول (٤١٢ هـ) .

٣ – أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان شمس الملك المين : تقلد فى المحرم سنة (٤١٣ هـ) .

٤ – أبو محمد الحسن بن صالح الروذبارى عميد الدولة .

٥ – أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى نجيب الدولة : تقلد فى سنة (٤١٨هـ).

* *

فى عهد المستنصر

١ – الجرجرائى استبقى : تقلد فى شعبان سنة (٤٢٧ هـ) .

٢ – ابن الأنبارى « قتل فى ٥ المحرم سنة ٤٤٠ هـ » .

٣ – أبو منصور أو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى « كان يهودياً ثم أسلم مات مقتولاً » : تقلد فى سنة (٤٤٠ هـ) .

٤ – أبو البرات الحسين « أو الحسن » بن عماد الدولة محمد « ابن أخى الجرجرائى » : تقلد فى سنة (٤٤٠ هـ) .

٥ – أبو الفضل سعيد بن مسعود : تقلد فى شوال سنة (٤٤١ هـ) .

٦ – أبو محمد الحسن « أو الحسين » بن على بن عبد الرحمن البازورى : تقلد فى المجرم سنة (٤٤٢ هـ) .

٧ – أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلى شرف الملة كفيل الدين : تقلد فى المحرم سنة (٤٥٠ هـ) .

٨ – أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين المغربى (الرابع): تقلد فى ٢٥ ربيع الثانى سنة (٤٥٠ هـ) .

٩ - البابلى « للمرة الثانية » : تقلد فى ٩ رمضان سنة (٤٥٢ هـ) ، خلفه وزراء لم تطل أيامهم .

١٠ - أبو النجم بدر الجمالى المستنصرى أمير الجيوش « مولى جمال الدولة بن عمار توفى فى ربيع الأول سنة ٤٨٧ هـ » : تقلد فى ٢٨ جمادى الأولى سنة (٤٦٦ هـ) .

١١ - أبو القاسم شاهنشان الأفضل بدر الجمالى أمير الجيوش توفى فى ٣٠ رمضان سنة (٥١٥ هـ) : تقلد فى ربيع الأول سنة (٤٨٧ هـ) .

* *

فى عهد المستعلى

١ - الأفضل : استبقى : تقلد فى ذو الحجة سنة (٤٨٧ هـ) .

٢ - شرف المعالى بن الأفضل .

* *

فى عهد الآمر

١ - شرف المعالى استبقى « اغتيل فى ٢٣ رمضان سنة ٥١٥ هـ » : تقلد فى صفر سنة (٤٩٥ هـ) .

٢ - أبو عبد الله محمد المأمون بن فاتك بن مختار البائحى « ولد فى سنة ٤٧٨هـ، وصلب فى ٤ رمضان سنة ٥١٩ هـ » : تقلد فى مستهل ذى القعدة .

* *

فى عهد الحافظ

١ - أبو على أحمد بن الأفضل المسمى « كنيفات » « اغتيل فى ١٦ المحرم سنة ٥٢٦ هـ » : تقلد فى المحرم سنة (٥٢٥ هـ) .

٢ - يانس « مملوك أرمنى » دس له السم فى ٢٦ ذى القعدة سنة (٥٢٦ هـ) : تقلد فى المحرم سنة (٥٢٦ هـ) .

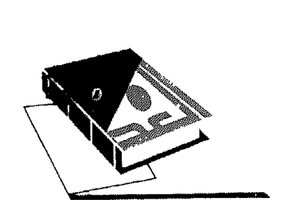
٣ - أبو على الحسن بن الحافظ « ولى العهد ووزير أبيه » : تقلد فى ذى الحجة سنة (٥٢٦ هـ) .

فهرست الجزء الثانى
من كتاب « حماة الإسلام »

الموضوع — الصفحة

* * *





طباعة. نشر. توزيع

٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - جيزة

ت : ٣٢٥٠٢٠٢ - ٣٢٥٠٩٥٧